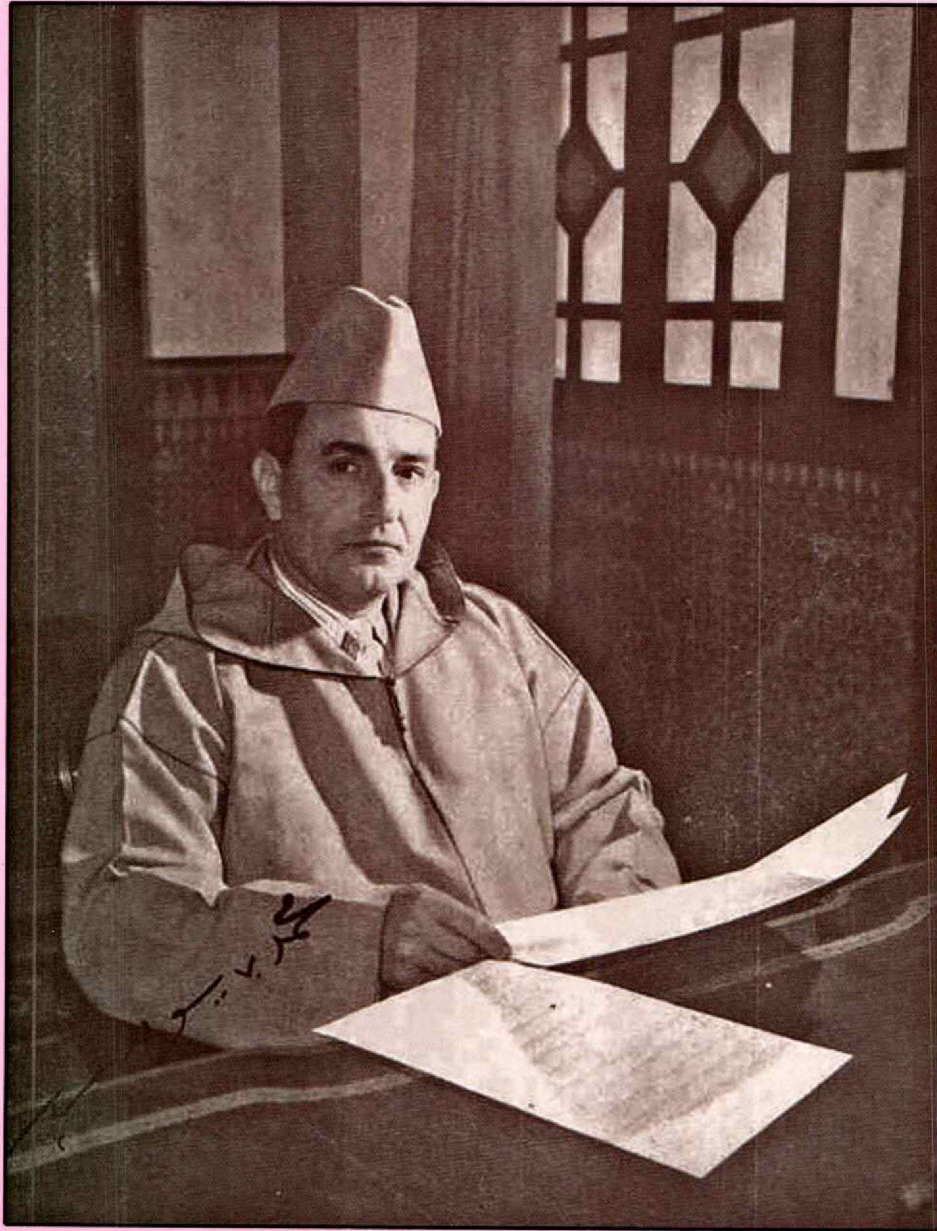


دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية



عدد خاص بذكرى ثورة الملك والشعب



السنة السابعة والخمسون - العدد 414 شوال 1436 هـ / غشت 2015 م

414

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الفقه والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة السابعة والخمسون - العدد 414 شوال 1436 هـ / غشت 2015 م



أسسها

جلالة الملك المفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957م



”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصحة خاصة بنامية الإصلاح الديني، كما نعالج
مقتلب الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتب مولعا دعاية الفكر والثقافة والإصلاح في هذه
البلاد ونغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاح والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة ”دعوة الحق“ بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

في سنة 1376هـ / 1957م
الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
الملك محمد الخامس طيب الله ثراه

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mhaj.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 32 10 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

التوزيع الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

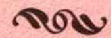
الخارج : 300 درهم ثمن العدد : 15 دھ

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمانة - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



افتتاحية

يخلد الشعب المغربي هذه السنة الذكرى الثانية والستين لثورة الملأ والشعب، ومبنى الاحتفاء بهذا الحدث المغاربة مستمد من روابط البيعة ووشائج الإخلاص للعرش العلوي المجيد، وما ترتب عن ذلك من استلزام العبر السامية والعز بالكرر الغالية، العجسلة في اعتبار هذه الذكرى ثورة متواصلة من أجل تعزيز مكانة المغرب كعادل وازن في محيطه الجهوي والكلولي.

والقول بتجديد العهد على جعل هذه الذكرى ثورة متواصلة مشعر بصدق تصورات أمير المؤمنين جلالة الملأ محمد السادس نصره الله وأيله لمعان هذه المناسبة، وما واكبها من تصديقات برهنت على ضبط التوازنات، والمضي في تحقيق التطلعات.

ومن تجليات تلك التصديقات ما استعماله الشعب المغربي من سيرة جلالته في الاهتمام بأحوال شعبه وجعله في مصاف الدول الراقية بحسن رعايته وجميل عنايته. ومما أنبى على تلك المتابعة :

- حرص جلالته على جعل المغرب يتبوأ مكانته ضمن الدول الصاعدة بفضل ما حفقه من منجزات ملموسة في مساره الديموقراطي والتنموي والتقدم الاقتصادي والاجتماعي والانتعاش الجهوي والكلولي.

- الاستعانة من العرس التي يتيمها الافتضاء الأخضر في ظل النفلة النوعية التي حففتها الفصاع التجاري والمالي على الصعيد الفاري .

- شمولية الرعاية المولوية لكل فئات الرعية التي عبر عنها جلالته بقوله: "لأنا لا نريد مغربا بسرعتين: أغنياء يستغيثون من ثمار النمو ويزاحون غنى، وفراء خارج مسار التنمية ويزاحون فقرا وحرمانا".

لأنا أن العنصر البشري هو الثروة الحقيقية للمغرب، وأحد المكونات الأساسية للرأسمال غير المادي.

ومن ثم فالمغزى الوثيق لهذه الذكرى هو جعلها ثورة متجددة ومستمرة بفيادة جلالة الملأ محمد السادس أعز الله أمره وشعبه الوفي في تلاحم تام بينه وبين كل مكونات الأمة المغربية، مع استكرار الرحمات على من فلأه الله شرف فيادة هذه الثورة وفي مقدمتهم جلالة المغفور له محمد الخامس بحب الله ثراه، وجلالة المشمول برحمة الله الحسن الثاني أكرم الله مثواله، وشهداء المقاومة الأبرار المنعمون في حار الفرار، باللقم أجعل كل من شرفه الله بالمشاركة في هذه الثورة في أعلى عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، آمين، والحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير

ملف العدد
نذكرى ثورة الملك والشعب

ثورة الملك والشعب

المنطلقات والعبر المستفادة

د. عبد الواحد الوزاني
أستاذ باحث - فاس

لقد ثبت في التاريخ القديم والحديث أن لكل أمة ذكريات وأحداثا تمجدها وتقدها، والأصل في إحياء الذكريات والاحتفال بها هو أن تكون مصدرا للعظة والعبرة ونبراسا للاقتداء والاهتداء، والذكريات سبب من أسباب ربط الأمم بماضيها وتذكيرها بأمجادها حتى لا تضل الطريق ولا ترجع إلى الوراء، قال الله تعالى: «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين»¹، وقال أيضا: «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور»²، قال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: «وذكرهم بأيام الله» أي: بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين، ليذكروا نعمه وليحذروا عقابه، «إن في ذلك» أي: في أيام الله على العباد «لآيات لكل صبار شكور» أي: صبار في الضراء والعسر والضيق، شكور على السراء والنعمة³.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى قال: فأنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه»⁴.

هذا وإن لكل بلد أيامه ولكل قطر أعياده التي يستقبلها بشوق وسرور، وهذه سنة الله في خلقه التي لن تجد لها تبديلا ولا تحويلا، ومن الأيام العظيمة، والمناسبات الكبيرة الخالدة في ذهن المغاربة

1 - سورة الذاريات، الآية: 55.

2 - سورة إبراهيم، الآيتان: 6-7.

3 - تفسير تيسير الكريم الرحمن لعبد الرحمن السعدي، ص 420.

4 - صحيح الإمام البخاري كتاب الصيام، باب صيام يوم عاشوراء حديث رقم: 2004.

قاطبة من تاريخهم المعاصر، ذكرى ثورة الملك والشعب المظفرة، التي تعتبر بحق ملحمة كبيرة من الملاحم الإنسانية للانعتاق من الاحتلال والتبعية إلى رحاب الاستقلال والحرية.

إن ذكرى ثورة الملك والشعب تشكل حقا حدثا تاريخيا حاسما تَوَّج بالنصر مراحل الكفاح المرير الذي تلاحت أطواره، وتعددت صوره وأشكاله، في مواجهة الاحتلال الفرنسي للبلاد والعباد المفروض منذ سنة 1912م، حيث خلد المغاربة أروع صور الوطنية الصادقة، وبذلوا أغلى التضحيات في سبيل عزة الوطن وكرامته والدفاع عن مقدساته.

وقد تجلت أولى ملامح هذا الحدث عند رفض أمير المؤمنين محمد الخامس رحمه الله الخضوع لضغوطات سلطات الحماية، والمتمثلة أساسا في طلبها منه مناهضة الحركة الوطنية والمد التحرري للوطن، وعاكسهم بتشبته بمواقفه الراضية لكل مساومة، كل هذا تسبب في تأزم الوضع وإقدام سلطات الحماية على محاصرة القصر الملكي بواسطة القوات الاستعمارية يوم 20 غشت 1953م، بمساعدة بعض الخونة من القياد والباشاوات، طالبة منه التنازل عن العرش أو النفي خارج الوطن، ففضل رحمة الله عليه النفي على أن يرضخ لإرادتهم مصرحا بأنه الملك الشرعي للأمة، فكان اختياره اختيار نبي الله يوسف عليه السلام ﴿رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾⁵، يقول وارث سره ورفيقه في المحنة الملك المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراه في كتاب "التحدي" عن هذه اللحظات الحرجة على لسان والده عندما طُلب منه التخلي عن العرش: «ما من شيء في أفعالي وأقوالي يبرر أن أتخلّى عن أمانة اضطلع بأعبائها بصفة مشروعة، وإذا كانت الحكومة الفرنسية تعتبر أن الدفاع عن الحرية والشعب بمثابة جريمة يعاقب عليها، فإني أعتبرها فضيلة يُفاخر بها وتورث صاحبها المجد»، وزاد قائلا: «إني ملك المغرب الشرعي ولن أخون الأمانة التي أتمنني عليها شعبي الوفي المخلص، إن فرنسا قوية فلتفعل ما تشاء»⁶. فكان رحمة الله عليه حقا وصدقا وفيا لالتزاماته تجاه شعبه الذي قلده أمانة صيانة حوزة البلاد من الأطماع الاستعمارية، والحفاظ على مصالح الأمة المغربية.

ولعل أهم ما يجب التركيز عليه في مثل هذه المناسبات المجيدة، لتخليد عمقها التاريخي والحضاري في الوجدان الجماعي للأمة المغربية أمران هما من الأهمية بمكان:

- أولهما: معرفة المنطلقات والأسس التي انبثقت منها هذه الثورة العظيمة، فكان لها ما كان من الأثر المحمود في تحقيق المقصد المرغوب، والهدف المنشود، ليُعض عليها بالنواجذ.

5 - سورة يوسف الآية: 33.

6 - من كتاب التحدي، للملك الحسن الثاني، وينظر مذكرات من التراث المغربي ج 275/6.

- وثانيهما: استخلاص العبر والدروس والفوائد الدينية والتاريخية والحضارية ليقْتدى بها ويهتدي بها النشء والأجيال المتعاقبة، وفيما يلي بيان معالمها ورسومها.

أولاً: المنطلقات والأسس التي ارتكزت عليها ثورة الملك والشعب :

1. العمق التاريخي للدولة المغربية

الدولة المغربية ضاربة في أعماق التاريخ، وليست وليدة قرن أو اثنين أو ثلاثة... بل هي ممتدة منذ بزوغ فجر الإسلام في برها، واعتناق أهلها الإسلام عن حب واقتناع على يد الفاتحين الأماجد...؛ إلا أن الفاتحين إنما فتحوا قلوب أهل المغرب على الحق، وبصائرهم على هدى الرحمن، ولم يكن مهمهم تشكيل نظام الحكم بالبلد ولا فرض وصايتهم على أبنائه، فنظام الحكم الذي ارتضاه المغاربة تم على يد أبنائه عندما التفوا حول المولى إدريس سليل الدوحة النبوية لما جاء فاراً من بطش العباسيين وظلم ولائهم، والمولى إدريس إنما جاء لاجئاً منفرداً، ولم يدخل للبلاد غازياً محارباً، فاحتضنته القبائل الأمازيغية والتفوا حوله وبايعوه أميراً عليهم واتخذوه رمزا دينيا ليرأس دولتهم هم، لا دولته هو، دولة قائمة على اختيار المذهب السني المالكي، دون أدنى تأثير برواسب التشيع الوافدة من الشرق.

إن اختيارات المغاربة المبكرة في الأخذ بالمذهب السني في العقيدة والفقه والتصوف، والتحامهم بالدوحة النبوية الشريفة، أو بمن يحمل مشعل الجهاد والذود عن وحدة البلاد، واستعصائهم على التبعية لأي سلطة خارجية، شكلت أرضية خصبة ساعدت على ظهور نواة حكم مركزي، تبلور عبر القرون وعبر الأسر التي حكمت المغرب، وإن كانت تضعف أحيانا ويصيبها الوهن أحيانا أخرى، إلا أنها جسدت في العمق استمرارية النسق التنظيمي الذي اختاره المغاربة، والذي تبلور ونضج مع توالي القرون والمحن، لهذا لم يخضع المغرب قط لا للخلافة العباسية في بغداد، ولا للخلافة الأموية في الأندلس، ولا للخلافة الفاطمية بشمال إفريقيا، ولا للخلافة العثمانية بالأناضول، بل مثل ملوكه وحكامه في مختلف الأسر المتعاقبة على حكم البلاد السلطة الزمانية، والرمزية الدينية فلقب ملوكه بأمرأ المؤمنين أو أمراء المسلمين، ولهذا لم يستطع المستعمر الفرنسي ولا الإسباني التأثير في النظام السياسي المغربي ولا تغييره، لما وجدوه من تلاحم متين بين العرش والشعب، وتعاون على تحرير البلاد من سطوة المحتل الغاشم.

2. قيام الدولة المغربية على الشرعية الدينية:

منذ قيام دولة الأدارسة إلى دولة العلويين وولي أمر المغاربة يجمع بين صفة الملك، وصفة أمير المؤمنين، وهو نمط فريد يستمد أسسه من الأصول الإسلامية في الحكم، فرسول الله ﷺ أخذ البيعة من المسلمين في مناسبات مختلفة، في زمن السلم وفي زمن الحرب، في المنشط والمكره، من عامة المسلمين ومن خاصتهم في ظروف معينة، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَنُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾⁷ إلى أن قال عز وجل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾⁸ وتعتبر هذه الآية أصلاً في وجوب بيعة المسلمين لمن ينوب عن رسول الله ﷺ في تدبير شؤون المسلمين، قال ابن خلدون رحمه الله: «البيعة: هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر في المنشط والمكره»⁹. والبيعة عقد غليظ بين طرفين، يلزم كل طرف بواجبات شرعية جسيمة، وتجعل كلا منهما منوطاً بأمانة عظيمة يجب عليه الوفاء بها، وقد تحدث العلماء عن حقوق وواجبات كل طرف أوصلوها إلى عشر حقوق للأمير على الرعية، وعشر حقوق للرعية على الأمير¹⁰، وملخص حقوق أمير المؤمنين على الرعية هي التي أوردناها في نص ابن خلدون السابق، أما حقوق الرعية على الأمير فسأقتصر على ذكر حقين منها لتعلقهما بموضوع بحثنا، ولكونهما لازماً شرعية النظام المغربي عبر تاريخه الطويل، وهما:

- حفظ بيضة الإسلام بحفظ شرائعه وأحكامه وتعظيم شعائره، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن زاغ مبتدع أو ذو شبهة، أوضح له زيغه بإقامة الحجة عليه وبين له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ليكون الدين محروساً من الخلل، والأمة ممنوعة من الزلل.

- تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يظفر الأعداء بثغرة ينتهكون فيها محرماً¹¹.

7 - سورة الفتح، الآية: 10.

8 - سورة الفتح، الآية: 18.

9 - مقدمة ابن خلدون، 209/1.

10 - ينظر: تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام لابن جماعة الكناي، ص. 61-71، والأحكام السلطانية لأبي يعلى، ص. 19.

11 - ينظر: أهل الحل والعقد للماوردي، ص. 15-16، وبحث الدكتور محمد الأزرق "ارتباط ثورة الملك والشعب بعقد البيعة" من كتاب ثورة الملك والشعب: الجذور والامتدادات، ص. 165.

لقد مثل عقد البيعة في الدولة المغربية تعاقدًا شرعيًا ساميًا بين العرش والشعب، والتزامًا بين الطرفين على إقامة الدين وحماية بيضة المسلمين، ووحدة الأراضي والثغور من الأطماع الاستعمارية، لهذا كلما أهدقت بالبلاد المخاطر هب العرش والشعب لحماية الدين والوطن.

قد تحقق بفضل الله النصر وتحرير البلاد على يد الملك البطل الهمام جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه في تلاحم عظيم بأفراد شعبه والحركة الوطنية آنذاك.

3. مسيرة البناء المشتركة قبل الثورة المشتركة

إن المغرب ما كان ليحقق استقلاله وانعتاقه من قيود الاحتلال الغاشم من خلال الثورة التي اشترك فيها الملك والشعب، ما لم تكن مسيرة مشتركة لقرون متتالية من البناء وتشديد الحضارة المغربية في أبعادها الدينية والإنسانية والاقتصادية والاجتماعية... مسيرة ابتدأت مع الأشرف الأدارسة وتوالت مع المرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين.. وصولاً إلى الأسرة العلوية الشريفة، مسيرة عمت في بعض الأوقات المغرب الكبير والأندلس، وأرخت بظلالها على إفريقيا الغربية جنوب الصحراء الكبرى، وما زالت ظلالها واضحة للعيان إلى يومنا هذا متجسدة في وحدة المذهب المالكي، والتصوف السني، والتنسيق السياسي والاقتصادي والمساعدات الاجتماعية على يد أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده، من خلال الزيارات المتكررة لهذه الدول الشقيقة للمغرب جنوب الصحراء، والتي تمثل عمقه التاريخي والحضاري، والتي تدل على أن مسيرة البناء المغربية لم يقتصر أثرها على أبناء الشعب المغربي وإنما عمت دول الجوار وبلاد الإسلام بشمال إفريقيا.

ولعل أهم ما يمكن أن نستشهد به لبيان أن الثورة المشتركة ما كانت لتحقيق أهدافها ما لم تسبقها مسيرة البناء والعطاء المشتركة، كلمة للملك الهمام جلالة الملك الحسن الثاني رحمه الله - الذي كان ينطق من عقب التاريخ ويستلهم منه الدروس والعبر - بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب يوم 20 غشت 1992م حيث قال: «..ولكن لنقف دقيقة واحدة عند لفظ الثورة، أي ثورة الملك والشعب. فالثورة المشتركة ليست شيئاً يأتي عفويا وليست حدثاً تاريخياً بل قبل أن تكون الثورة المشتركة يجب أن تكون المسيرة المشتركة. والمسيرة ليست بقدم وقدم، وذراع وذراع، ولا بخطوات وخطوات. إن المسيرة في مفهوم التاريخ وقاموس التاريخ تقتضي القرون والقرون حتى تسمى مسيرة. فلو لم تكن مسيرة الشعب والعرش مسيرة تاريخية حتى جبلية عندنا لما تمكنا في القرن الذي نحن فيه - يعني القرن العشرين - من أن نقوم بثورة الملك والشعب. وهذا والله الحمد ما يجعلني أقول إن المغرب

رغم تراكم الأسر الملكية كأنه سلسلة ذهبية لا فرق بين أدارستها وعلويتها وما توسطتهما... وانطلاقاً من هذا أريد بعد الثورة أن نستثمر المسيرة... مسيرة الملك والشعب نحو هدف واحد وفي وقت واحد وبإرادة موحدة. فلا أنا أرغمتك على قبول شيء، ولا أنت انتزعت مني شيئاً¹².

ثانياً: الدروس والعبر المستفادة:

إن الحديث عن ثورة الملك والشعب كلما حل يوم 20 غشت من كل سنة ليس الهدف منه سرد أحداث تاريخية مضت وانتهى زمانها، ولا مجرد تمجيد بطولات الوطنيين والثوار الأماجد الذين حققوا النصر والاستقلال - وإن كان ذلك مهما في حد ذاته - وإنما الهدف من كل ذلك هو وصل الحاضر بالماضي، واستنباط الدروس والعبر للاستفادة منها، والتشبث بها لاستكمال مسيرة البناء التي انطلقت منذ قرون على يد أسلافنا الأماجد، والتي ستستثمر بإذن الله على يد الخلف الصالح من أبناء هذا البلد الكريم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأهم هذه الدروس المستفادة من ثورة الملك والشعب:

1. صدق الانتماء إلى الدين: ما كان لثورة الملك والشعب أن تجني ثمار النصر والتحرير لولا الإيمان الصادق بنصر الله تعالى، ولولا صدق الانتماء لهذا الدين قيادة وشعباً، ذلك أن العزة لله تعالى يهبها لعباده المخلصين الصادقين في انتابهم لدينه الحنيف، مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾¹³ وقوله أيضاً: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾¹⁴ لهذا كلما صدق المسلمون الله في التوجه إليه والارتباط بدينه والاهتداء بشريعته أعزهم وكفاهم شر المعتدين والظالمين وأظهرهم عليهم، يقول الله عز وجل: ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرِكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾¹⁵ وقوله عز وجل: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾¹⁶.

2. صدق الانتماء إلى الوطن: من الدروس العظيمة المستفادة من ثورة الملك والشعب، ذلك الانتماء الصادق لكل من الملك والشعب لهذا الوطن العزيز، حيث ضحى جلاله الملك محمد

12 - مقتطف من الخطاب الملكي للملك الراحل الحسن الثاني بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب يوم 20 غشت 1992م.

13 - سورة المنافقين، الآية: 8.

14 - سورة آل عمران، الآية: 139.

15 - سورة محمد، الآيتان: 7 و8.

16 - سورة النساء، الآية: 140.

الخامس طيب الله ثراه بعرشه على أن يصير ألعوبة بيد المقيم العام، يوقع له الظهائر التي تمكنه من السيطرة على البلاد والعباد، ومن اشتراك السيادة الوطنية مع السلطة غير الشرعية للبلاد¹⁷، كما ضحى الشعب بأرواح أبنائه المجاهدين في مختلف ربوع البلاد من خلال حروب المقاومة والعمليات الفدائية، والملاحقات والاعتقالات والتعذيب الوحشي، وكذا ما عاناه قادة العمل الوطني من ويلات النفي والإبعاد والتضييق والمتابعة والإذابة، أمثال: محمد بن عبد الكريم الخطابي، ومحمد بن الحسن الوزاني، وعلال الفاسي، والمختار السوسي...

3. أمانة البيعة وصدق الالتزام بمقتضياتها: البيعة كما أسلفنا سابقا أمانة عظمى يتقلدها كل من السلطان والرعية، ولها مقتضيات دينية يجب الوفاء بها من الطرفين، هذا الأمر وفي به المغاربة حق الوفاء من خلال الوفاء للسلطان الشرعي للبلاد أمير المؤمنين محمد الخامس طيب الله ثراه، وطاعة أمره والاهتداء بتوجيهاته، كما وفي بها محمد الخامس، رحمه الله، فلم يتملص موقفه من المطالبة بالاستقلال قيد أنملة، ولم يتنازل عن ذرة واحدة عن تراب البلاد، وقام بما يلزمه عقد البيعة من واجبات إمارة المؤمنين من رعاية مصالح المسلمين والحفاظ على هويتهم، ووحدتهم، ووحدتهم بلادهم.

4. حكمة القيادة: يقول الله عز وجل: «يُوتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ»¹⁸ وقال عن نبيه داود عليه السلام: «وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب»¹⁹ الحكمة هي رأس مال لا حدود له ولا حصر لثماره، وهو لا يأتي إلا بخير، ومن سعادة شعب من الشعوب أن يمنحهم الله قائدا حكيما، يعرف متى يلين ومتى يتشدد في الموقف، متى يُقدم ومتى يُججم، وكيف يستغل الأحداث لتحقيق المصالح العليا لبلده وشعبه، ومحمد الخامس، رحمه الله، منحة ربانية لهذا الشعب الكريم، حيث جاء على عكس تدبير المستعمر الغاشم الذي أراد أن يتحكم فيه ويوجهه كيف شاء، إلا أن إرادة الله هي الغالبة فقد كان ذكيا ألمعيا حكيما، قاد شعبه لتحقيق الاستقلال، يقول خير الدين الزركلي في كتاب الأعلام في ترجمة محمد الخامس رحمه الله: «ولد بفاس سنة 1911م وبويع سنة 1927م بعد وفاة والده بفاس، وليس هو أكبر إخوته، قدمه الفرنسيون متوهمين انقياده إليهم لهدوء طبعه وصغر سنه، ولما اكتمل شبابه، اتصل في الخفاء

17 - وذلك عندما رفض، رحمه الله، في شتنبر 1952م من توقيع الظهائر التي كانت تنص على السماح للفرنسيين بالمشاركة في انتخاب المجالس البلدية ومن تكوين مجلس وزراء مختلط، وكذا المذكرة التي رفعها لرئيس الجمهورية الفرنسية بتاريخ 13 أكتوبر 1952م والتي طالبه فيها بمراجعة معاهدة 1912م أو التقيدها بها ورد فيها. ينظر: كتاب محمد الخامس، الملك البطل لقاسم الزهيري ص 87.

18 - سورة البقرة، الآية: 268.

19 - سورة ص، الآية: 19.

بأهل الوعي من حملة الفكرة التحررية في بلاده متجاوبا معهم في نجواهم وشكواهم... وتألفت كتلة العمل الوطني وبرز حزب الاستقلال، فكان محمد الخامس ممن أقسم له اليمين سرا، وكتب ذلك، فلا أعلم أحدا أذاعه قبل كتابة هذه الترجمة... ووجدوا أنفسهم - أي المحتل الفرنسي والإسباني - أمام محمد الخامس يجرى عليهم وينصر المطالبين بجلالهم ويمتنع عن إمضاء ما يعرضون عليه من مراسيم فخلعوه يوم 20 غشت 1953م...»²⁰.

5. الصبر والتحمل: وخاتمة الدروس والعبر التي نستنبطها من هذه الذكرى المجيدة هي: ضرورة الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله لتحقيق المراد، ونيل النصر، وتحقيق الأهداف، فنتيجة الصبر وجزاؤه النصر والتمكين في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، قال الله عز وجل: ﴿وَلَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾²¹ وقال أيضا: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾²² إن الصبر نفحة من نفحات الله، يعتصم به المومن، فيتلقى المكارة والمصاعب بحزم ثابت ونفس مطمئنة، ولولاه لانهارت نفسه، وتحطمت قواه، وأصبح عاجزا عن السير في ركب الحياة، وقد دعا الإسلام إلى الاعتصام به لأنه من أهم الفضائل الخلقية، وقد ذكره القرآن الكريم في سبعين آية، ولم يذكر فضيلة أخرى بهذا المقدار مما يدل على أهميته وعلو قدره عنده سبحانه وتعالى. والأمة التي لا صبر لها لا يمكن أن تصمد في وجه الأعاصير والمحن، ولولا هذه الفضيلة التي تحلى بها المغاربة في مختلف مراحل الثورة والعمل الفدائي والسياسي والعسكري ضد المحتل، لما ظفروا بالنصر والتمكين في الأرض وإجلاء المعتصب عن وطنهم، وقطع كل تبعية له.

هذه الأسطر هي محاولة لاستجلاء الأسس والمنطلقات الحضارية والتاريخية التي عاش عليها المغاربة لقرون، والتي بها، بعد فضل الله ومَنِّه، عشنا أعزة كرماء بين شعوب العالم، وحققنا بها الاستقرار والعيش الهنيء، وإن كان المحيط الإقليمي في بعض الأحيان يعيش صعوبات، أو اضطرابات سياسية واجتماعية واقتصادية، فنحمد الله على ما نحن فيه من النعم، ونسأله عز وجل أن يديم علينا نعمة الاستقرار والأمان، وأن يجعل التحامنا بالعرش العلوي المجيد التحام صدق وتعاون لما ينهض بالبلاد والعباد إلى أرقى المقامات بين أمصار المعمورة، والحمد لله الذي تتم بفضل الصالحات.

20 - خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، منشورات دار العلم للملايين، بيروت، 1999م، ج. 7، ص 158-159.

21 - سورة النحل، الآية: 96.

22 - سورة الزمر الآية 11.

انتفاضة مدينة وادي زم في يوم 20 غشت 1955م

ذ.عبد المجيد محزوم
باحث، وادي زم

لقد اعتبر يوم 20 غشت 1953 بداية نهاية الاستعمار الفرنسي بالمغرب ، وآخر مسمار يدق في نعش الحماية الفرنسية بالمغرب وذلك بإقدام السلطات الفرنسية بنفي السلطان محمد الخامس، طيب الله ثراه، إلى جزيرة كورسيكا، وبعدها إلى جزيرة مدغشقر.

لقد بدأت مؤامرة النفي تظهر بوادرها ابتداء من 7 يناير 1953م حينما تقوت شوكة الثالوث : الباشا "الكلالوي" والمقيم العام "ثيوم" والشيخ "الكتاني" الذين اجتمعوا في "تيسة" ودبروا ما دبروه ضد محمد الخامس وعرشه، وذلك باستمالة عدد من الباشوات والقواد، وتآليهم ضد سيدهم وولي نعمتهم المدافع عن الحرية والاستقلال.

وهكذا فما إن شارف شهر مايو 1953م على نهايته (يوم 27 منه) حتى حملت الأنباء أن المقيم "ثيوم" سلم في باريس إلى وزير خارجية بلاده "بيدو" عريضة تحمل توقيع (270) من القواد والباشوات يطالبون فيها بتنحية السلطان وخلعه ووضع مقاليد الأمر في يد شخصية أكثر استحقاقا وجدارة.

إلا أن الملك الهمام لم يتزحزح موقفه من هذا التهديد، الذي كان يعلم أن أصحاب عريضة (270) من الجبناء، وقعوها خوفا من نقمة المستعمرين وقوتهم وسلطتهم، فلم يعر القضية أكثر مما تستحق من الاستحقاق، وما زاده هذا الحادث إلا إيمانا وحزما وعزما على مواصلة الكفاح إلى النهاية، لأنه يدرك أن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وأن عاقبة المخلصين النجاح.

وحاول المقيم "ثيوم" جس النبض يوم 31 مايو 1953م حينما تقدم إلى القصر الملكي، فسمع من الملك ما أذهله، فقد وجده ملكا ثابت الجنان، صلب العود، قوي الإخلاص لمبادئه، محافظا أميناً على سيادة بلاده.

وانشرت موجة من السخط في البلاد منددة بالحماية ورجاها وأذناها، وانطلق الشعب بكافة طبقاته يوجه عرائض التأكيد والولاء إلى الملك، وبرقيات التشبث بعرشه العلوي الشريف.

وأظهر باشوات وقواد آخرون - وهم شرفاء أحرار - استنكارهم الصريح للعريضة المذكورة وأعربوا عن ولائهم لسيد البلاد.

ورغم المناورات ودسائس الاستعمار وأذنا به، فقد ظل السلطان محمد الخامس وولي عهده الأمير المحبوب صامدين وهما يواصلان الكفاح العادل، كما ظل الشعب يتجول في الشوارع ويتحدى المستعمر ويردد جهاراً: يحيا محمد الخامس، يحيا محمد الخامس، يحيا الملك، عاش ولي العهد المحبوب.

وتزاحم الشعب في الدار البيضاء على تسجيل ولائه للملك في دفتر القصر الملكي.

وهذا ما كذب الإشاعات التي يروجها أولئك الذين اجتمعوا في مولاي إدريس زرهون يوم 11 غشت 1953م استجابة لرغبة جماعة "بونيفاص".

وحذر الملك - في رسالة - الحكومة الفرنسية من مغبة الفتنة التي تشعلها الإقامة العامة في المملكة المغربية، وتبرأ العلماء من زعيم الخونة باشا مراکش وأصبحت مدن المغرب وقراه كالمراحل تغلي حامية.

وعرف الأسبوع السابق ليوم 20 غشت 1953م سلسلة متوالية الحلقات من المآسي، إذ كانت المؤامرة الدنيئة تدبر في مراکش عاصمة الجنوب، حيث تفشى الظلم، وقلبت الحقائق. وشاع نبأ استخدام دمية للتربع على العرش، فتعالت في أرجاء المملكة، من أقصاها إلى أقصاها، هتافات:

ملكنا واحد محمد الخامس ❀ ملكنا واحد محمد الخامس

نعم، لقد تجمع مضلل في مراکش تحميه القوة وترعاه، وتجمعات وطنية في مساجد البلاد وشوارعها تشتتها القوة بالسلاح والنار، وجنود المستعمرين ورجال شرطتهم يستفزون المواطنين ويسيلون دماء الأبرياء، والملك الحكيم يتألم حسرة وأسى ويدعو إلى الهدوء والرزانة ورباطة الجأش، وقصره مطوق من جميع الجهات بدبابات المستعمرين، والمراقبة الصارمة مضروبة ومفروضة على تنقلات الأمراء والأميرات وخروجهم ودخولهم.

وفي يوم 19 غشت 1953م دبرت المؤامرة الدنيئة في باريس، حيث انعقد المجلس الوزاري الفرنسي بحضور المقيم العام الفرنسي بالمغرب "كيوم" وبمعية وزير الخارجية "بيدو".

فعاد مقيم السوء إلى الدار البيضاء صباح يوم 20 غشت 1953م، حيث اجتمع توا بباشا مراكش، بينما كانت الطائرات العسكرية تحلق فوق الرباط تنشر الذعر والجنود بسلاحهم ومعداتهم الحربية متمركزون في مختلف منافذ أمهات المدن.

حيث بادرت الإقامة العامة بمحاصرة القصر الملكي عسكريا، ولم تعر اهتماما لآلاف العرائض والتصريحات المؤيدة لجلالته، والتي كان يدلي بها العلماء وعدد من القواد والباشوات، وكذلك للمظاهرات التي قام بها الشعب المغربي في عدد من الجهات، والتي كانت تعزز موقف السلطان وتندد بالاستعمار وتعسفاته.

وأوعزت الإقامة العامة إلى علمائها باختيارهم الدعية محمد بن عرفة كخلف للملك الشرعي، وهو رجل مسن ليست له دراية بأمور الدولة.

لقد نفى الملك المجاهد وأسرته الكريمة يوم 20 غشت 1953م، حيث انتهك المستعمر أعظم حرمة وأقدس مقام بفعلته الشنيعة، وسيق الوطني الأول في تاريخ المغرب إلى المنفى بكورسيكا، وكان ذلك هو الحكم القاضي الذي حكم به الاستعمار على نفسه في المغرب، حيث يعتبر هذا إيذانا بنهاية عهد الحماية، وتلا كورسيكا الانتقال إلى مدغشقر.

ومنذ ذلك الحين بدأ الكفاح المسلح، حيث شكلت خلايا سرية فدائية في المدن والقرى، ونظم الوطنيون أنفسهم وسخرت للكفاح جميع الوسائل المشروعة للدفاع عن المشروعية ورجوع الحقوق إلى أهلها، وهي عودة الملك الشرعي محمد الخامس إلى عرشه، والمطالبة باستقلال المغرب.

وكان دعي العرش ابن عرفة هو أول هدف للطلقات الأولى التي صوبها المجاهدون، حيث اندفع في 11 شتنبر 1953م علال بن عبد الله بشجاعة خارقة في هجوم قام به على ابن عرفة الذي كان محاطا بموكب رسمي في طريقه إلى الصلاة بمسجد أهل فاس الواقع في دائرة القصر الملكي بالرباط، وكان هذا الحادث بمثابة مؤشر لانطلاق حركة وطنية حقة قادتها نخبة من الشباب المغربي يوم الجمعة 20 فبراير 1954م ورميت قنبلة على الكلاوي خلال الصلاة بمسجد الكتبية لكنها لم تصبه، وذهب ضحيتها إمام المسجد، كما أصيب 20 شخصا بجروح متفاوتة، كما تعرض ابن عرفة في يوم الجمعة 5 مارس 1954م إلى هجوم جديد بمسجد بريمة حيث أصابته قنبلة يدوية تركته في حالة سيئة إذ كان يقوم بزيارة لمراكش.

وتلا ذلك عدة حوادث في جميع أنحاء مدن المغرب وبواديها احتجاجا على نفي السلطان محمد الخامس وعلى سياسة الاستعمار الاستبدادية أدت إلى سقوط العديد من الشهداء المغاربة، والعديد من القتلى في الجانب الأوروبي.

وبمناسبة الذكرى الثانية لنفي الملك الشرعي، اندلعت الثورة في البداية ما بين 19 و 21 غشت، وهكذا هجم المواطنون يوم 19 غشت على مركز خنيفرة حيث أحرقوا المتاجر الفرنسية ومراكز الشرطة، في حين شرع الفرسان الأمازيغ في التوجه نحو هذه المدينة لاكتساحها، ولم يرددهم عن ذلك إلا تدخل السلاح الجوي الفرنسي والدخول معهم في مفاوضات تهدئة، وفي يوم 20 غشت اندلعت الثورة في كل من الدار البيضاء وسيدي قاسم والصويرة والجديدة وأزمور وأسفي ووزان وأبي الجعد، وفي مدينة وادي زم اتخذت الانتفاضة طابعا ثوريا راديكاليا بتدخل فرسان القبائل، مما أدى إلى سقوط 49 قتيلا في الصباح من الجانب الأوروبي، ليتلو ذلك تدخل قوات الجنرال "دوفال" في العشي بإطلاقها النار على المواطنين دون تمييز بين السكان العاديين والمقاومين.

لقد مهدت لثورة الملك والشعب (20 غشت 1955م) بوادي زم عوامل كثيرة وأحداث جسام، ذلك أن انتفاضة مدينة وادي زم لم تأت وليدة الصدفة والعفوية، بل جاءت نتيجة نضال طويل، أي منذ عهد الحماية، وازدادت حدتها حينما أقدم الاستعمار الغاشم على نفي بطل التحرير والمقاوم الأول المغفور له الملك محمد الخامس، طيب الله ثراه، حيث صادف ذلك اليوم عيد الأضحى المبارك، فكانت التعبئة الشاملة بعدم نحر الأضحية، وشارك فيها جميع سكان مدينة وادي زم والقبائل المجاورة، ومنذ ذلك الحين قام أفراد منظمة "اليد السوداء"، التي كانت بصلة دائمة مع نظيرتها منظمة "اليد السوداء" بالدار البيضاء، التي كانت تمدّها بالبلاغات والمناشير، بِحَث ساكنة مدينة وادي زم والنواحي، بعدم المشاركة في الحفلات والأعراس، كما كانت تحث النساء على ارتداء اللباس الأسود موازاة مع نفي السلطان الشرعي، وكانت زوجات بعض الرجال المتعاونين مع الاستعمار الفرنسي يطالبن بالطلاق ويعتبرنهم من الخونة المساعدين للاستعمار الفرنسي، والبعض منهن رفضت الزواج بالمتعاملين مع المعمرين، كما كانت منظمة "اليد السوداء" محليا تحارب بيع وشراء البضائع الأجنبية، كما كانت تحث أصحاب المتاجر بالإغلاق يوم الجمعة من كل أسبوع.

وكانت خلية "اليد السوداء" برئاسة السائق هو الخياط تعمل بتنسيق مع السيد باسم عمر الزقلي بالدار البيضاء، في حين كانت خلية البداوي لبصير تنسق مع السيد الطالعي محمد بن الحسين بالدار البيضاء.

ورغم فرض الإقامة الجبرية على البداوي لبصير من طرف سلطات الحماية، فإنه كان على اتصال مع بعض الإخوة بمدينة خريبكة، وكان بعض الإخوة يتصلون بالبداوي ليلاً مشياً على الأقدام خفية من السلطات ليمدوه بالمعلومات والمشورات.

وقد انخرط العديد من المناضلين في منظمة "اليد السوداء" بوادي زم وكان العمل الجماعي يسود هذه المنظمة مع التلاحم والإخاء، وكان الهدف الأسمى هو مقاومة الاستعمار الفرنسي بكل أشكاله: (من توعية المواطنين، ومحاربة البضائع الأجنبية، وكتابة شعارات داعية إلى محاربة الاستعمار) كما أن حفظة القرآن من الشباب والطلبة كانوا يجتمعون بمجمع ضريح الولي محمد بن لبصير، حيث كانوا يعملون على تحسيس المناضلين وتحسيسهم للجهاد في سبيل الله، والاستشهاد من أجل الوطن والمملك والإسلام، وذلك بتبيان بعض آيات من الذكر الحكيم، والأحاديث النبوية الشريفة في الموضوع.

وفي سنة 1954م ستتوالى العمليات الفدائية، حيث سيقوم السيد محمد الكوس بإحراق محطة البنزين، التي تسمى "محطة أوزو"، حيث تكبدت شركتها خسائر فادحة تقدر بخمسة ملايين فرنك فرنسي وعلى إثر هذه العملية قامت السلطات الفرنسية بعملية استنفار، حيث اعتقلت العديد من الشباب من أجل التحقيق معهم، كما كان المناضلون يقومون بتوجيه رسائل تهديد إلى أعوان الاستعمار، كما قام المناضلون بعملية تفجير قبلة بالسوق الأسبوعي يوم الإثنين، وقامت السلطات الاستعمارية بعملية اعتقالات وتفتيش عن مدبر هذه العملية الفدائية، حيث طال قمع السلطات للمناضلين ليصل إلى القرى والمداشر، حيث تم القبض على عائلة مولاي الجيلالي، وتمت محاكمة الجميع علانية بقيادة المعادنة، وذلك للتأثير في نفوس المقاومين والمناضلين وتخويفهم، غير أن هذا السلوك لم يزد المناضلين إلا قوة وعزيمة في الدفاع عن الوطن والمملك، بل إن النضال أصبح جماعياً لا فردياً.

كما قامت منظمة "اليد السوداء" بتحريض قبائل السماعلة، خاصة: قبيلة البراكسة، وأولاد الديك، وأولاد عيسى، والعشاشكة، وأولاد علي، والرمامين، على عدم الذهاب للسوق الأسبوعي بالبادية المعتاد انعقاده يوم الجمعة وتغييره بيوم السبت، وقد نجحت هذه المهمة، فتأثرت السلطات الاستعمارية من هذه العملية، وقامت باعتقال مجموعة من أفراد منظمة "اليد السوداء" بتهمة التحريض ونذكر منهم: عباس فخر الدين، والبدادوي لبصير، وزاهيدي المعطي، وأمال المصطفى، وغيرهم...

وأحيلوا على قسم الاستنطاقات لعدة أشهر بمدينة خريبكة، حيث تم الحكم على كل من البداوي لبصير وأمال المصطفى بالإقامة الإجبارية في مسقط رأسيهما.

وفي يوم 18 غشت 1955م وضعت كافة القوات الفرنسية في حالة استنفار بما فيها الاحتياطية، تحسبا لرد فعل المناضلين والمواطنين المغاربة من الذكرى الثانية لنفي الملك محمد الخامس.

كما تهيأت منظمة الوجود الفرنسي التابعة "للید الحمراء" المعادية للمقاومة بالمغرب خاصة الدار البيضاء ووادي زم.

وفي ذلك اليوم كانت خلايا المقاومة بأيت عمار ببني خيران تتهيأ للثورة، حيث تم حث العمال، ابتداء من الساعة الثانية بعد الزوال، على التجمع أمام مقر إدارة منجم أيت عمار.

وفي يوم 19 غشت 1955م سقط أحد الشهداء برصاص أحد أعوان الاستعمار بمدينة وادي زم، يسمى "العيزي" الذي كان يهتف بحياة ورجوع الملك محمد الخامس ويندد بالاستعمار وأذنا به، حيث كان له تأثير بالغ في نفوس ساكنة وادي زم ومناضليها، ففي هذا اليوم تم إبرام اتفاقية بين منظمة "اليد السوداء" و"منظمة التحرير" و"اليد المتوكلية على الله" على يد السيد البداوي لبصير و"منظمة اليد السوداء" بالمدينة، وكذا مع منظمة الموحدين والمنظمة السرية، لوضع اللمسات والترتيبات الأخيرة للقيام بثورة 20 غشت 1955م، وتم وضع قائد على كل مجموعة ليقوم بتنظيم الهجومات وطريقة التصدي للقوات الاستعمارية، ومن هذه المجموعات نذكر:

- مجموعة وادي زم/ كانت تضم: الكوس العربي، ومحمد ولد الضاوي الدحماني، ومحمد بن عزوز، وغداوي عباس، وعبد المجيد ولد بلبصير، وكوني محمد، وفخر الدين عباس...

- مجموعة قبائل السماعلة: وكانت تضم منتصر احمد، والباشيري أحمد، والشهيد لبصير بن غية، والمجاهد محمد وكريم المصطفى، وأمال المصطفى...

- مجموعة أيت عمار وكان ضمن صفوفها: الشرقي بن دحو، والمخربش أحمد، والكبير بن صالح، وأوشني محمد، وبوعزة التربة... وقد التحق بهم أغلبية ساكنة أيت عمار ببني خيران بخيولها وعتادها يوم 20 غشت 1955م.

وفي ليلة الجمعة 19 غشت 1955م كان الجميع على أتم الاستعداد للقيام بثورة الملك والشعب، حيث كانت معنويات المواطنين والمناضلين والمقاومين جد مرتفعة، نساء ورجالا، همهم الوحيد هو استقلال المغرب ورجوع الملك الشرعي محمد الخامس إلى عرشه، فودع المقاومون والمناضلون

أهاليهم رافعين أياديهم متضرعين إلى الباري تعالى لنصرة الأمة المغربية وملكها الهمام، وتكبيد العدو أكبر الخسائر والهزائم...

وجاء اليوم الموعود الذي قال فيه الله عز وجل: ﴿والسمااء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمومنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد¹﴾.

وكما جاء في كتاب "20 غشت 1955م مأساة وادي زم لمؤلفه بالحضري المعطي" .. صباح يوم 20 غشت كان كل شيء في وادي زم هادئا وصامتا، وهذا السكون كان يوحى بعاصفة، فابتداء من الساعة الثامنة والنصف صباحا اجتمع الآلاف من المتظاهرين قادمين من شمال طريق الدار البيضاء شارع محمد الخامس حاليا، باتجاه وسط المدينة، حيث بدأت بزغاريد النساء والتهافتات بسقوط الاستعمار ورجوع الملك محمد الخامس. وكان يتقدم المتظاهرين السيد ممدوح محمد بن بوشعيب وهو يحمل صورة كبيرة لصاحب الجلالة محمد الخامس، وفي تلك الأثناء انضمت إليهم بعض الجموع من القبائل الوافدة من السماعيلة وبني خيران وبني سمير...

أما بالنسبة للمعمرين الفرنسيين والأوروبيين، فقد فضلوا الدخول إلى منازلهم وعدم الخروج إلى الشوارع خشية الاصطدام بالمتظاهرين... وبدأ المتظاهرون برمي المنازل المحاذية للشارع بالحجارة وإحراق بعضها، كما أن بعض المتظاهرين هاجموا مستودع الحبوب لصاحبه الفرنسي "زاميت" فقتلوا ابنه "إيريك" وأضرموا النار في أكياس الحبوب... كما قتلوا عائلة "اسكاش" التي تتكون من أربع بنات ووالدهم بالقرب من "زاميت" كما قتل بجواره السيد "ديجان" بائع الفحم الحجري... أما بجانب الطريق المؤدية إلى الرباط، فقد قتل الشاب "فوايني" مع زوجته بساطور أحد المتظاهرين وهو مسؤول في مصلحة "دار الكهرباء".

في حين التجأ بعض الأوروبيين إلى دائرة وادي زم خوفا من التقتيل إذ احتموا ببعض "المخازنية" كما أن بعض المدنيين حملوا معهم بنادق الصيد، حيث كان يوجد المفتش "مينيون".

وعند الساعة التاسعة والنصف صباحا، انضم فرسان قبائل السماعيلة إلى المتظاهرين بمدينة وادي زم وفي الطريق إلى المدينة كان قد اعترضهم المفتش المدني القبطان "بول كغايول"، وبصحبه

1 - سورة البروج، الآيات: 1-8.

أحد الدركيين وكان يريد إقناعهم بالعدول عن الدخول إلى مدينة وادي زم، وإقناعهم بالرجوع من حيث أتوا، غير أنه لقي مصرعه مع الدركي.

وبدخولهم المدينة أضرموا النيران في جميع مرافق المعمرين وفي المؤسسات الإدارية والاقتصادية، ... وفي جانب آخر من مدخل الحي الأوروبي، كان القبطان "بوتس" يتركز فوق سيارة "جيب" ويحمل رشاشا ويطلق النار على كل من حاول الدخول إلى الحي من المتظاهرين... وفي جانب من جهة شرق شمال الحي كان يتركز الدركي المغربي "عبد العزيز بن إدريس" وهو عميل الاستعمار صحبة دركي آخر حيث كان يطلق الرصاص على المتظاهرين، فقتل منهم العشرات، وبعد الاستقلال فر هذا العميل إلى فرنسا خشية انتقام المغاربة منه لأسر ضحاياهم.

ومنذ تلك اللحظات أصبحت مدينة وادي زم منعزلة عن العالم الخارجي، وذلك بفعل تخريب وتعطيل وسائل الاتصال السلبي واللاسلكي، وظل المتظاهرون يجوبون الشوارع والأزقة بحرية، إلى غاية الساعة الثانية والنصف بعد الزوال حيث جاءت إمدادات عسكرية فرنسية بقيادة العقيد "بوريل" من قيادة مديونة، وبمجرد دخول القوات الفرنسية وادي زم قصفوا كل من يعترض طريقهم بشكل عشوائي: رجالا ونساء وأطفالا، وكل من وجدوه أمامهم، وقصفوا المنازل، فقطعت الكهرباء، وظل هذا التقتيل للإنساني طيلة يومي السبت والأحد ليلا ونهارا، فانتشرت الجثث في الشوارع، وظلت أياما طويلا دون دفن، مخافة أن يلقي أهاليها نفس المصير... فكانت مجزرة بشعة، بلغت الآلاف من الشهداء... في حين أن جثث الأوروبيين، والتي بلغت 200 جثة تقريبا، أودعت المستشفى العسكري الكائن بطريق الفقيه بن صالح.

وفي يوم 24 غشت 1955م، تم دفن جثامين الأوروبيين في المقبرة المسيحية بمدينة وادي زم في مراسم كبيرة يرأسها مطران كنيسة الرباط، بحضور المقيم العام "جيلبير كران فال" وبحضور وفود إدارية عليا وأعضاء السلطات القنصلية ووسائل الإعلام الوطنية والدولية، والعديد من الآلاف من الأوروبيين الذين أتوا من كل صوب وحذب، وخاصة من مدينة الدار البيضاء، حيث كان الموكب الجنائزي يتألف من أزيد من 500 سيارة.

أما بالنسبة لأيت عمار: ففي 20 غشت 1955م على الساعة الثانية زوالا، وقبل وصول التعزيزات العسكرية إلى مدينة وادي زم، توجهت مجموعة من المتظاهرين صوب مناجم أيت عمار التي تبعد عن مدينة وادي زم بحوالي 25 كلم، وهاجموا 30 عائلة أوروبية، بكاملها، أما الناجون من المعمرين فقد تحصنوا في منزل مدير المنجم، وكان يدافع عنهم وعن نفسه بينديته الخاصة، إلى أن

جاءت الإمدادات العسكرية من مدينة وادي زم، وهي وحدات عسكرية للعقيد "بوريل". وسقط 100 شهيد من المتظاهرين، وطالت العمليات الانتقامية والعقابية المواطنين المغاربة، فدمرت القوات الاستعمارية الدور والمداشر، وأحرقت المحاصيل الزراعية، وكل شيء وجدوه أمامهم، ناهيك عن الأعمال اللاإنسانية حيث بلغ عدد الشهداء 500 شهيد...

أما بالنسبة لضياعات "بلاد الرباط" فقد تعرضت لهجوم من طرف المتظاهرين على الساعة الخامسة مساء، فتم إحراق العديد من المعدات الفلاحية والمحاصيل الزراعية، وأسفرت عن مقتل العديد من الأوروبيين.

يقول المقاوم محمد الكوس في كتابه "الوقائع الكاملة لانتفاضة وادي زم": "ابتداء من الساعة الثامنة والنصف صباحا من يوم 20 غشت 1955م الخالد، انطلقت الثورة بالتهليل والتكبير والصلاة على سيدنا محمد ﷺ، وحمل الفتيان والفتيات الأعلام الوطنية، وصور السلطان سيدي محمد بن يوسف، وشعارات كتبها لهم المناضلون: "إننا نطالب بالحرية والاستقلال باسم الأمة المغربية كما نطالب بعودة الملك الشرعي من منفاه السحيق، وإننا على استعداد لبذل كل التضحيات وإراقة الدماء في سبيل هذا المبدأ". كما حث جميع الساكنة بإبقاء منازلها مفتوحة لاستقبال الجرحى ومنفذي العمليات الهجومية على العدو الاستعماري.

هكذا انطلقت الثورة، على بركة الله وعونه، من وسط المدينة في اتجاه الحي الأوروبي للمعمرين الفرنسيين والثكنة العسكرية، ومركز رجال الدرك والبحيرة ومركز أمن الشرطة "بزقة الحنصالي" حاليا، والحي الواقع شرق وغرب الطريق الرئيسية المؤدية إلى المدينة، وهو شارع محمد الخامس حاليا، كما توجهت أفواج أخرى نحو الفنادق والملاهي الليلية والمقاهي ومتاجر الأوروبيين.

وبمجرد دخول المقاومين والمتظاهرين إلى الأحياء الأوروبية، جوبهوا بطلقات الرصاص من طرف رجال الدرك والأمن ومختلف قوات الاستعمار....

لقد دخل المجاهدون والمقاومون المعركة بأسلحة تقليدية: (سلاح نوع ساسبو، بوكرين، بنادق الصيد، بندقية بوحبة، السيوف، السكاكين، السواطير، قنينات مليئة بالبزنزين، المناجل) وغيرها من وسائل الدفاع عن النفس مقابل أسلحة العدو المتطورة.

نعم لقد أبان المقاومون عن بسالة وشجاعة في ميدان المعركة، التي اعترفت بها القوات الفرنسية عبر قصاصات الجرائد آنذاك...

لقد كانت ثورة الملك والشعب 20 غشت 1955 م ملحمة تاريخية، سطرت أحرفها من ذهب في سجلات تاريخ المغرب المعاصر الخالدة.

هذه الثورة التي كانت مدينة وادي زم مسرحاً لها، حيث ظل دخان حرائقها في سماء المدينة، زهاء ثلاثة أشهر ما بعد الثورة، فيما كانت الأزقة والشوارع تجري بالدماء الزكية لشهداء ملحمة الاستقلال، وكذا القوات الفرنسية والمدنيين الفرنسيين الذين قتلوا على يد المقاومين...

ومن أهم العمليات في أحداث 20 غشت 1955 م :

- جرح وإعطاب الحاكم المدني "بوط" ونقله إلى المستشفى العسكري بوادي زم.

- قتل أكبر مقاول في الغابات المسمى "ديجي".

- قتل عائلة "فواني" صاحب شركة بيع الخمر والدخان.

- قتل البلجيكي صانع الرخام.

- قتل رئيس مطحنة "ليندا" ومن معه من الأوروبيين.

- قتل عائلات "كازينات" بأيّت عمار المسؤولين عن المناجم، وما يفوق 20 مسؤولاً أوريا بأيّت عمار. كما تم تدمير وإحراق العديد من المعامل والمؤسسات بإحراق مؤسسة "ريتشارد للنقل"، وإحراق مؤسسة موريس للمعدات الفلاحية، وإحراق مؤسسة "فرانسوا" بيع السيارات نوع رونو وإحراق متجر "فريوان" لبيع السكر والشاي وعجلات السيارات، وإحراق محطة القطار ومكتب نقل البضائع وغيرها من المؤسسات. وقدرت خسائر المستعمر الفرنسي بمليارين ونصف فرنك فرنسي...

ومنذ أن تعززت السلطات الفرنسية بوحدات من المظليين القادمين من الكتلة العسكرية بخريبكة وبالدبابات والأسلحة الثقيلة، تعبأت بكل وحشية وقامت بعملية تمشيطية واسعة النطاق، واستهدفت جميع المواطنين بحثاً عن المقاومين وشملت الشيوخ والرجال والنساء والأطفال العزل، حيث تم سوقهم حفاة إلى المكان المسمى "بئر العيان" وكانت الحرارة مفرطة، فلا ماء يقدم لهم ولا طعام، وساد جو من الهلع والخوف والرعب بين صفوف المواطنين، حيث طوق المنطقة ألف وخمسمائة جندي، بالإضافة إلى دوريات الطائرات المروحية التي كانت تراقب المعتقلين...

ولقد أسفرت نتائج الاعتقال على ما يناهز ألف ومائتي سجين، تم نقل 58 معتقلاً منهم إلى سجن مراكش، ولبث في السجن المدني في وادي زم 77 معتقلاً إلى حين رجوع سيدي محمد بن يوسف من المنفى، حيث تم إطلاق سراحهم بعفو ملكي في يناير 1956م، مع الإشارة إلى أن مدينة

وادي زم عاشت تحت الحصار لمدة ثلاثة أشهر بعد ثورة 20 غشت، وفرض حظر التجول خلال هذه المدة المذكورة، انطلاقاً من الساعة السادسة مساءً إلى الساعة السابعة صباحاً.

وهذه قائمة بأسماء بعض المقاومين الذين لبوا نداء الواجب الوطني وسقطوا في المواجهة ضد قوات الاستعمار الفرنسي يوم 20 غشت 1955م بوادي زم:

- 1- الكوس العربي 2- الزيدي محمد 3- محمد بن محمد بن السمعلي 4- الحسن بن الكبير
- 5- الحبيب أحمد 6- السعداوي بوعزة 7- عبو بن محمد 8- مسعودة بنت محمد 9- البريني عائشة
- 10- لعراش الملوذي وغيرهم...

قائمة بأسماء بعض ممن أعدموا بدون محاكمة بعد ثورة وادي زم 20 غشت 1955م.

- 1- عباس بولال.
 - 2- أحمد بن كبور.
 - 3- الهلالي بن إسماعيل أعدم أمام أهله.
 - 4- الملوذي بن إسماعيل أعدم أمام أهله.
 - 5- سامي أحمد بن عبد القادر أعدم وربط خلف سيارة جيب وجر في الشارع.
 - 6- بنداود بحار.
 - 7- لحسن بن عيادة.
 - 8- خليل محمد بن عبد الرمي أعدم أمام أهله.
 - 9- لكصيعي بن صالح كريم.
 - 10- الحاج محمد امزالي استشهد تحت التعذيب.
- قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً، ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً﴾².

2 - سورة الأحزاب، الآيتان: 23-24.

وعاد محمد الخامس مظفرا منتصرا، تحفه عناية الله وتحيط به طائرات أولئك الذي سبق لهم أن اختطفوه خلصة، واستقبلته عاصمة مملكته، وأطل من شرفة القصر على بحر الجماهير المتماوج منذ الفجر في المشور السعيد من جديد، وانطلقت من صوته المرتج النبرات من شدة التأثر:

"الحمد لله وحده، أيها الشعب العزيز، حمدا لله إذ جمع شملنا، وأذهب عنا حزننا، ولم يضيع جهودنا، أيها الشعب الوفي، مهما تمسكتم بالعروة الوثقى ما كان شيء ليضركم كيفما كانت شدته إذ لا شدة تدوم في الحياة الدنيا. أيها الشعب العزيز وعدت بالإخلاص، ووفيت أحسن الوفاء، وكنت من الصابرين، فكان لك ما وعدت به، ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾.

أيها الشعب العزيز قد أخلصت الوفاء وأديت الواجب أحسن أداء كما أديت، وها أنا بينكم كما تعهدوننا، حب البلاد رائدنا، وخدمتها غايتنا. ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾.

سألت مجلة "الإثنين" جماعة من مشاهير الكتاب، عن أعظم رجل في العالم، فأجاب أحدهم بقوله: إنه محمد الخامس الذي ضحى بعرشه في سبيل استقلال وطنه وسيادته.

وقال عنه أحد وزراء مصر: إنه لو لم يكن سلطانا لكان عالما، له في مقام العلم منزلة رفيعة...

المراجع :

- الوقائع الكاملة لانتفاضة وادي زم (20 غشت 1955م)، المقاوم محمد الكوس.

- 20 غشت - مأساة وادي زم - بالحضري المعطي.

- محمد الخامس المثل الأعلى في المقاومة، نشر وزارة الأنباء.

- محمد الخامس، ورأيناه في القمر، علي منير العلوي.

دور الزوايا وشيوخ التصوف في مقاومة الاحتلال الإيبيري نهاية الدولة المرينية وبداية الدولة السعدية

ذ. محمد أمrani علوي
أستاذ باحث في التاريخ،
الرشيدية

مقدمة:

شكلت نهاية القرن الخامس عشر، وبداية السادس عشر، فترة زمنية هامة في التاريخ المغربي، نتيجة التحولات التي عرفتھا الدولة المغربية في بنيتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بتداخل عدد من المعطيات المرتبطة بالكيان المغربي من جهة، وبعده معطيات ذات البعد الخارجي التي كانت إحدى العوامل الأساسية في بلورة رؤية وطنية محلية ذات أهداف قريبة وبعيدة المدى من جهة أخرى، فقد كان لتطور أوروبا السياسي والاقتصادي والعسكري أثره على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط في الشمال الإفريقي، خاصة القريب منها، الذي توسعت على حسابها، حيث انقلبت وتيرة المواجهة من مدافع إلى مهاجم ومن مهاجم إلى مدافع، الشيء الذي جعل منطقة القوة سابقا تعرف ضعفا وتدهورا اقتصاديا وسياسيا على الخصوص، تجسد في فقدان بعض المناطق الشمالية لهذا المحتل القادم من شبه الجزيرة الإيبيرية، مما ساعد على تشكيل وعي وطني كان الهدف الأساسي منه هو إعادة الاعتبار إلى قوة الدولة المغربية وطرد المحتل المستر بالغطاء الديني المسيحي من المناطق المحتلة بالشمال، هذا الوعي الوطني الذي انطلق من منطلق أساسي هو قدسية الوطن والدفاع عنه، نتيجة ضعف الجهاز الرسمي الحاكم، حيث استغل رجال الدين والزوايا هذا الضعف لينطلقوا في إطار تشكيل جبهة وطنية قوية، ذلك أنه كلما كانت السلطة المخزنية ضعيفة أصبحت الحركة الطرقية - شيوخ الزوايا على الخصوص - قوية، وبقدر ما كانت السلطة المخزنية قوية بقدر ما تصبح الحركة الطرقية ضعيفة، وظلت حركة الصلاح مستمرة ومنصبه نفسها برزخا مركبا تزاوج فيه الديني والديني لتصنع التجربة التاريخية المغربية المتميزة إلى أن حل عهد الحماية¹. وكان العديد

1 - مجلة أمل، العدد / 20-19 / 2000، ص 157.

من سكان المغرب، أمام الهزيمة ضد المسيحيين، تواقين إلى وجود قوة أخرى تعيد لهم الاعتبار والسلام، فكانت ظاهرة التصوف في هذه المرحلة، وأمام الضعف الكبير للجهاز الحاكم بدأ الناس يلتفتون حول هذه الحركة الجديدة التي جعلت من أولوياتها الدفاع عن الثغور المحتلة باسم الجهاد، نظرا لقدسية الدين الإسلامي في نفوس المغاربة، خصوصا وأن الحركة الصوفية جعلتها حربا بين الإسلام والمسيحية، بذلك انتشر التصوف إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر انتشارا كاسحا، حتى أصبحت شبكة المقدس - الزوايا - تغطي كل مناطق المغرب، ولم يشمل هذا التطور المستوى المجالي فقط، بل امتدت حركية الصلاح إلى المستوى السياسي، وغدا عاديا، بل مطلوباً، تدخل الصلحاء في الشؤون السياسية بشقيها الداخلي والخارجي وذلك ب :

- تعبئة المجتمع ضد الخطر الإسباني المتربص بشواطئ البلاد.

- إيجاد إطار دولتي قوي يحمي البيضة ويقر العدل².

هكذا فإن هذه الحركة الصوفية التي ظهرت خلال مرحلة انحطاط سياسي مغربي، عرفت إشعاعا كبيرا خصوصا في تبنيها للقضايا الوطنية، الشيء الذي كان عاملا مساعدا لها على الانتشار والتوسع في مجمل التراب المغربي، خلال مرحلة ضعف السلاطين المرينيين وبداية الدولة السعدية الناشئة³، مما سمح لها بأن تقوم بوظائف حاسمة في تاريخ المغرب خلال هذه المرحلة، في مواجهة المحتل المسيحي، أو في تشكيل قوة سياسية لها القدرة على توحيد البلاد وإعادة الاعتبار لها كما كان الحال سابقا، وبالتالي فكيف أطرت هذه الزوايا المغاربة حول فكرتها هذه؟.

1- الزوايا والتأطير الفكري

لم تكن الزوايا في المغرب وليدة لحظة التراجع المغربي خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر، بل كانت نواتها منذ القديم⁴، هذه النواة التي وجدت في المغرب مع الفاتحين المسلمين الذين كانوا يشكلون رباطات على الثغور الإسلامية بما فيها بلاد المغرب، حيث كان يعد فيها المؤمن للجهاديين الأصغر والأكبر، ومن هنا انصهرت الفكرتان في تصوف سني مرتكز على دراسة دقيقة للمعارف الإسلامية، فتطورت الزاوية على هذا النسق من رباط إلى زاوية إلى مدرسة، وكان لذلك أثره منذ العهد المريني في الحواضر حيث ارتبطت المدرسة بالزاوية⁵. ولا بد من الإشارة إلى أنه في

2 - مجلة أمل، ص 158.

3 - بنعبد الله عبد العزيز: "الزاوية المغربية كمنتدى للفكر والإشعاع العلمي"، مجلة دعوة الحق، العدد 243 / سنة 1984، ص 76.

4 - لا نود في هذه النقطة التأريخ لظاهرة الزوايا بالمغرب، بقدر ما نود معرفة كيف أثرت في المجتمع المغربي وفي الذهنية المغربية.

5 - بنعبد الله عبد العزيز: مرجع سابق.

الوقت الذي تخلى فيه الرباط عن وظيفته الأصلية، وتحول إلى وظائف ذات طابع اجتماعي وصوفي ظهرت الزاوية في بعض جهات المغرب لتزاحم الرباط في بعض وظائفه الاجتماعية، ثم ما لبثت أن سلبته كل وظائفه لتحل محله⁶، وأشار الباحث الأستاذ أحمد البوزيدي إلى أن الزاوية حلت محل الرباط، بعدما هبت ريح التيار الصوفي المشرقي على أرض المغرب، وانمحت آثار النحل الضالة من داخل البلاد، وانحصرت وظيفة الربط في نشر العلم وبث مبادئ التصوف في الأوساط الشعبية، فمع مرور الوقت وغياب جهابذة العلماء تحولت هذه الربط إلى مراكز لإيواء المريدين من أتباع أهل التصوف، فكانت الفئات المعوزة والفقيرة تجد في هذه الربط من يوفر لها بعض لوازم الحياة اليومية، ويحميها من الجوع، مقابل القيام ببعض الشعائر الدينية والصوفية من عبادات وأذكار⁷. هذا ما جعل الصلاح يحتل مكانة مهمة في البنية الفكرية المغربية، وحيزا واسعا على مستوى كم زبائنه، فإلى حدود ما قبل الحماية كانت البنية الثقافية للنخبة والمجتمع المغربي المعاد إنتاجها على العموم، هي الفقه أي ثقافة العلماء، والعلوم الأدبية أي ثقافة المخزن، والتصوف أي ثقافة الشعب، يعني قول ثقافة الشعب ثقافة السواد الأعظم، أي الشكل المهيمن في البنية الفكرية العامة⁸، مما أدى إلى ارتباط عامة الشعب بالشيخ والأولياء، وبذلك أصبحت ظاهرة الزوايا بالمغرب بمثابة الوجه المؤسس لظواهر القداسة⁹، هذا ما جعل المغاربة يتشبثون بمؤسسات المقدس، الزاوية والرباط... على اعتبار أنها مراكز للمرابطة والجهاد والعبادة والتعليم، هذه الرباطات لم يقتصر واقعها على توفير التربية الروحية لمريديهم وإنما أضافوا إليها تعليم الصبيان أيضا والاعتناء بأحوالهم، وقد توفر لبعض الصالحاء نصيب وافر من العلم أهلهم لتدريس كبار الطلبة¹⁰.

ولعل هذه العملية كانت الأساس في الانتشار الكبير للزوايا، فقد كان عدد من المريدين والطلبة يجتمعون حول شيخ يتعهد بتربيتهم الفكرية والخلقية والوجدانية، فيكون بمثابة معلم وأب روحي، ويكون المريد بمثابة تلميذ وخادم ورفيق، تطول هذه العشرة إلى أن يتشبع المريد بروح الشيخ ويكاد أن يصبح نسخة منه. عندما يفارق المريد الشيخ ليؤسس مركزا جديدا يقوم فيه بالمهمة

6 - البوزيدي أحمد: "مؤسسة الزوايا بوادي درعة ق 10-11هـ/16-17م، بين الإشعاع العلمي والانتشار الصوفي"، مجلة أمل، العدد 19-20، سنة 200، ص 39.

7 - نفسه، ص 38.

8 - مجلة أمل، مرجع سابق، ص 161.

9 - بورقية رحمة: الدولة والسلطة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، طبعة أولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1991، ص 39.

10 - فتحة محمد: النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى 9هـ/12-15م، منشورات كلية الآداب عين الشق، الدار البيضاء، 1999، ص 170.

نفسها، وهكذا تتحول الحركة إلى شبكة من المراكز متماثلة ومتباعدة، تتعدد بقدر ما يكثر المريدون ويتشرون في الآفاق¹¹، ولقد استغل هؤلاء المتصوفة الظروف التي عرفتها الدولة المغربية نهاية الدولة المرينية وخلال مرحلة الحكم الوطاسي، لتبرز فئة من أهل الصلاح وشيوخ التصوف تدعو الناس إلى إعادة النظر في أمور الدين والتقرب إلى الله ليرفع عنهم المجاعات والأوبئة، ويساعدهم في النصر على المسيحيين¹²، لأنهم اعتقدوا أن هزائم المغاربة المسلمين لا تعود إلى تفوق النصارى عسكريا وحسب، ولكن إلى ابتعاد المسلمين عن تعاليم دينهم الحنيف وفضائله، وجهاد النصارى أعداء الإسلام والمسلمين، إيماناً منهم بأن لا جهاد دون إيمان عميق، مما جعل جهادهم يكتسي صبغة حركة جهادية ثقافية¹³.

2- شيوخ التصوف والحث على الجهاد

لابد من الإشارة إلى الدور الكبير والفعال الذي قام به مشايخ الصوفية في عملية التوعية بالمخاطر التي أصبحت تهدد الإسلام والمسلمين، فمن أجل ذلك صرف هؤلاء عنايتهم للحض على الجهاد، ودفع الناس إلى التطوع والمشاركة في الحرب ضد المحتلين للسواحل المغربية، باعتبار الحض على الجهاد له نفس الثواب الذي يحصل للمجاهد¹⁴، فما دام هذا الجهاد تحركه حماسة وروح الدفاع عن دار الإسلام وحماية المسلمين فهذا "... الدفاع واجب شرعي بلا إشكال لضرورة نصرته الإسلام ووجوب القتال لدفع العدو عنه... ولأن كل ما ورد في القتال يشمل، والجهاد الدفاعي في واقع الأمر أهم من الجهاد الابتدائي، فإذا كان الثاني يمكن أن يؤدي إلى كسب جماعات جديدة إلى أمة الإسلام فإن الأول يحول دون سقوط هذه الأمة واضمحلالها"¹⁵.

من خلال ما سبق يبدو الدور الهام الذي قام به المتصوفة والفقهاء في تشجيع المريدین وعامة الناس على القيام بهذا الواجب، وذلك بحثهم وتبيان فضل الجهاد، مما كان له الأثر الحميد في

11 - العروي عبد الله: مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، طبعة أولى، الدار البيضاء، ص 39/3.

12 - البوزيدي أحمد: التاريخ الاجتماعي لدرعة، مطبعة آفاق متوسطة، ص 78.

13 - الوارث أحمد: الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي في المغرب خلال القرن 16، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب ظهر المهرز فاس، 1988، 509/2. احجيرة نور الدين: المدينة المغربية والحرب في عهد السعديين، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب فاس سايس، 2000، ص 69-70.

14 - بنيس عبد الحفي: الوطاسيون والاحتلال الإيبيري لسواحل المغرب (1471-1554)، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب ظهر المهرز فاس، 1988، ص 276-277.

15 - فضل الله علي: كتاب الجهاد، دار الملاك، لبنان، ص 414، زكي مبارك: "الجهاد البحري في الغرب الإسلامي، المفهوم الإسلامي والمفهوم الغربي المسيحي" مجلة البحث العلمي، العدد 45، 1998، ص 21.

انخرط العديد في سلك المجاهدين، نظرا للمكانة التي كانت لهؤلاء الشيوخ في نفوس المغاربة خلال هذه المرحلة، لأنهم ورغم اختلاف طرقهم الصوفية، وبعد زوايا بعضهم عن السواحل المحتلة، كان موقفهم من الغزو الأيبيري واحد، فقد اشتركوا جميعا بشكل أو بآخر في الجهاد، فمنهم من شارك بنفسه، وآخر بماله، وثالث بالعتاد، ومعناه أن الأولياء في جهادهم تجاوزوا حدود مجالاتهم الضيقة، سواء في القبيلة أم في المدينة للدفاع عن المغرب ككل، لأن نظرتهم أصبحت توحيدية شاملة، طالما أن العدو المشترك وما دام خطره موجها ضد الإسلام وضد كل المغاربة¹⁶.

لقد كان الفقهاء وشيوخ التصوف يحاولون دائما ربط تأطيرهم للمريدين الذين يعدونهم للجهاد بالجانب الديني، لذلك كانوا يصدرن عددا من الفتاوى لتأكيد صواب أعمالهم من جهة، وحتى تكون هذه الأعمال ذات مصداقية دينية في نفوس المريدين من جهة ثانية، فأكدوا في فتاواهم على إلزامية الجهاد ضد النصارى حتى لو كانوا في هدنة مع السلطان "... إن الجهاد فرض عين، في مسألة السؤال، فيمتنع فيها الصلح على كل حال. لا سيما إذا طالت مدته، فقد عادت على العدو - أهلكه الله - مصلحته وعلى المسلمين مفسدته، وإن تخيلت فيه مصلحة فهي للعدو أعظم من وجوه مكملته، فإنه يتحصن في تلك المدة، ويكثر من آلات الحرب والعدة، فيتعذر على المسلمين الاستنفاد، ويصعب عليهم تحصيل المراد، بعد تيسره لو ساعده التوفيق، لكن المولى جل جلاله، المسؤول في هدايته إلى سواء الطريق، فما وقع من الصلح فهو مصلحة للعدو وهو مفسدة على الإسلام، فلا يكون له في نفس الأمر انبرام، فالصلح المذكور يجب نقضه لأنه بمقتضى الشرع غير مبرم، فحكمه غير لازم عند كل من حقق أصول الشريعة بنظر عالم، وفي التلقين لا يجوز ترك الجهاد لهدنة إلا من عذر"¹⁷. وهناك من الفقهاء والعلماء من دعا إلى الجهاد دون إذن الإمام إذا لزم الأمر كالخوف من فوات فرصة لبعث الإمام أو كونه غير عدل يخشى أن يغلبه هواه في تفويتها، فلو كان غير عدل ومنع من الجهاد لغير نظر لم يمتنع الجهاد إن أمن الضرر من جهته¹⁸، وأكدوا كذلك على إلزامية الجهاد سواء كان العدو في بلد المسلم أم كان قريبا منها، على اعتبار أنه في بلد مسلم وحق عليه نصرته ضد العدو¹⁹، بذلك أصبح الشعور الوطني لا يمكن فصله عن الدين، لأنه كان عنصر التلاحم

16 - الوارث أحمد: الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي، ص 510/2.

17 - الونشريسي: المعيار المغربي والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرج جماعه من الفقهاء بإشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981، 208/2-209.

18 - الوزاني المهدي: النوازل الجديدة الكبرى، قابله وصححه عمر بن عباد، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، 1997، 11/3.

19 - نفسه: 9/3.

والتماسك بين جميع الشرائح الاجتماعية فقراء وأغنياء، سكان المدن والبوادي، فقهاء وعامة، فكان بمثابة الدم الذي يجري في العروق لتغذية جميع أعضاء الجسم الواحد. والذين كانوا يذودون عن حمى الوطن، كانوا مدفوعين بغيرتهم الوطنية التي سرعان ما اصطبغت بطلاء ديني، فكانت كلمة جهاد تعبيراً عن القومية والهوية الإسلامية، ووحدة مصير السكان والتشبث بأرض الأجداد²⁰.

ونظراً للأهمية التي أولاها الفقهاء للجهاد، فإنهم جعلوا له الأسبقية عن الحج، عندما يكون البلد مهدداً أو محتلاً من طرف الكفار، ومنهم من جعل الجهاد مقترناً بمراقبة الدين وتطبيقه²¹، حتى يكون له مكانة في نفوسهم ويقبلون عليه وهم معتقدين أنهم يقومون بشيء مقدس، ولم يقتصر هؤلاء العلماء المتصوفة على هذا فقط، بل حرموا الإقامة بين الكفار وأكدوا على إلزامية الهجرة من الأراضي التي استولى عليها الطغاة الكفرة، "إن الهجرة من أرض الكفر إلى أراضي الإسلام فريضة إلى يوم القيامة، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلم أو فتنة²²، فقد قال القاضي أبو الوليد ابن رشد رحمه الله: "أجمع المسلمون على أنه لا يحل لمسلم أن يبقى في دار الكفار اختياراً حيث تناله أحكامهم، فيجب على من قدر على الفرار أن يفر ولا يقيم بها"²³، لأن الموالاة الشريكية والمساكنة النصرانية والعزم على رفض الهجرة والركون إلى الكفار والرضى بدفع الجزية إليهم ونبد العزة الإسلامية والطاعة الإمامية والبيعة السلطانية، وظهور السلطان النصراني عليها وإذلاله إياها فواحش عظيمة مهلكة قاصمة للظهر يكاد أن تكون كفراً والعياذ بالله²⁴.

وكانت دعوة الفقهاء والصلحاء واضحة في مقاطعة الكفار وعدم التعامل معهم حتى لا يتمكنوا من تكوين قوة تهاجم المسلمين "ومن حمل إليهم الطعام فهو فاسق ومن باع منهم السلاح فليس بمؤمن"²⁵، حيث لا يجوز أن يباع للكفار الحريين القوت والسلاح ولا ما يصنع منه السلاح ولا ما يعظمون به كفرهم، ونصوص المذهب متظاهرة على ذلك، قال في المدونة، قال مالك: "لا يباع من الحربي سلاح ولا سروج ولا نحاس"، قال ابن حبيب: "و"سواء كانوا في هدنة أو غيرها"،

20 - كفتاني مولاي الحسن: جوانب من حركة الجهاد في بداية القرن السادس الميلادي، وقفات في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب الرباط، رقم 27، 2001، ص 123.

21 - الوشيري: المعيار المغرب، ص 432-433، الوزاني المهدي: النوازل الجديدة... م، س، ص، 5-4/3.

22 - الوشيري: المعيار المغرب، ص، 21/2.

23 - الوزاني المهدي: النوازل الجديدة الكبرى، ص، 41/3.

24 - الوشيري: المعيار المغرب، ص، 132/2.

25 - الزياتي عبد العزيز بن الحسن بن يوسف الغماري: الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجلال غمارة، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، 66 ج، ص، 234.

ولا يجوز بيع الطعام منهم في غير هدنة... ومن حمل إليهم الطعام فهو فاسق، ومن باع منهم السلاح فليس بمؤمن ولا يتعذر بالحاجة إلى ذلك لتحصيل ما يحتاج إليه في بلادهم"²⁶، ودعت عدة فتاوى أخرى إلى ضرورة التوحيد من أجل مواجهة الاحتلال الإيبيري، كما استنكرت النزاعات التي كانت تساهم في إضعاف قوة المغاربة بالثغور التي كانت في مواجهة المحتلين، أو كانت تعتبر من المناطق المجاورة للعدو²⁷.

انطلاقاً مما سبق يتضح أن الفقهاء وشيوخ التصوف استندوا إلى الفتاوى التي أفتوا بها إلى جانب اعتمادهم أسلوب المقاطعة، مقاطعة كل الذين بقوا في البلاد المحتلة، بل وصلوا إلى حد تكفيرهم، كما اعتمدوا أسلوب الحصار الاقتصادي من خلال تحريم التعامل التجاري مع المحتلين المسيحيين، حتى لا يتقوا على المسلمين، بل بهذه الطريقة كانوا ضد من بقي بالمدن المحتلة، ومع تكفيرهم وإباحة دمائهم، ودماء جيرانهم من يهود ومسيحيين على حد السواء، ونعتوهم "بعبيد النصاري"²⁸.

لم يقتصر عمل هؤلاء الفقهاء والشيوخ في التأطير الفكري والعلمي فقط، بل كان بعضهم من المشاركين في الجهاد أيضاً ضد الثغور المحتلة، حيث عملوا على المراقبة حول الثغور بصفة دائمة، أو مؤقتة حسب فصول السنة، وقد برز في هذا المجال الشيخ علي بن ميمون الإدريسي الغماري (ت 917هـ/ 1511م) الذي جمع بين تدريس العلم بجمال غمارة وقيادة الجهاد بقبيلة بني زيات الغمارية²⁹، وفي بلاد الهبط برز الشيخ عبد الله الوريكلي الذي لازم الثغور الهبطية "وكان من عادته أن يشتغل بالتدريس في فصل الشتاء والربيع ويخرج في فصل الصيف والخريف يربط بثغور القبائل الهبطية"³⁰. وقد استشهد عدد مهم من الأولياء في الحرب ضد المسيحيين، من بينهم أبو الحسن علي بن عثمان الشاوي الذي مات خلال الحومر سنة 939هـ/ 1532م قرب مدينة أصيلا، واستشهد الشيخ عبد المالك بن عامر السباعي خلال المعركة التي دارت بين المغاربة وبرتغاليي آسفي بمقربة من فج تري

26 - الوزاني المهدي/ النوازل الجديدة الكبرى، ص 14/3.

27 - الزياتي عبد العزيز بن الحسن بن يوسف الغماري: الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجمال غمارة، مخطوط الخزانة الحسينية رقم 2646، ص 236.

28 - الوارث أحمد: الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي، ص 512/2.

29 - احجرة نور الدين: المدينة المغربية والحرب في عهد السعديين...، ص 70.

30 - ابن عسكر محمد الحسن الشفشاوني: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص 31.

أومعاشو³¹، واستشهد أيضا سيدي عيسى بن الحسن المصباحي دفين الدعداعة بأرض البروزي من بلاد طليق، وأبو الفضل فرج الأندلسي ثم المكناسي، وأبو عبد الله محمد القصري المعروف بسقين، قتله النصاري عند ضريح أبي سلهم³²، ومنهم من أسر ثم خلصه الله حسب صاحب الاستقصا، مثل: الشيخ أبي محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من أحواز فاس، ووالد صاحب دوحة الناشر، وهو أبو الحسن علي بن مصباح الحسني عرف بابن عسكر، والشيخ العلامة أبو العباس أحمد ابن القاضي المكناسي، أحد قضاة سلا، وأبو عبد الله محمد بن أبي الفضل التونسي المعروف بخروف نزيل فاس، وشيخ الجماعة بها³³.

3- شيوخ التصوف والمساهمة الفعلية في الجهاد

لقد كان عمل هؤلاء الأولياء والمتصوفة يمتد سواء من الثغور الجنوبية أم الشمالية إلى تدريب المجاهدين على استعمال السلاح وفنون القتال، استعدادا لمقاومة العدو، إضافة إلى اضطلاعهم بمهمة تموين الجيوش التي عملوا على تطهيرها، فإلى جانب ما عرف بقضية النوبة في الجهاد، والتزام المجاهدين بها طواعية، ساهم الأولياء من جهتهم بمعداتهم الخاصة، فمولوا المجاهدين وسلحوهم وأمدوهم بالغذاء وتكلفتوا بتعويل عائلاتهم، إلى غير ذلك من المسؤوليات، خصوصا وأنهم كانوا أكثر الناس حرصا على الجهاد³⁴، ولم يكتف الأولياء والفقهاء بتحريض الناس على الجهاد وتشجيع المتقاعسين منهم وحسب، وإنما وجهوا أيضا نفس النداء لأولي الأمر منهم، وسلخوا في ذلك مسالك عدة، فمنهم من كان يتصل مباشرة بالسلطين، ومنهم من عكف على توجيه النداءات والمراسلات المكتوبة وربما الشفهية³⁵ كالنداء الذي وجهه الوالي المجاهد أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولي للسلطان محمد بعد أن قرر مقاطعته على إثر توقيعه الهدنة مع النصاري، بقوله :

قل للأمر محمد ياطلعة الهلال ❁ لويلة في السواحل من أفضل الليال³⁶

31 - احجيرة نور الدين، م، س، ص 70-71.

32 - أحمد بن خالد الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق محمد الناصري وجعفر الناصري، البيضاء، 1997، ج. 4، ص 111.

33 - الاستقصاء للناصري، ص 112/111/4.

34 - الوارث أحمد : الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي، ص 524/2-525.

35 - نفسه / ص 514/2.

36 - ابن عسكر : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب ومشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والنشر الرباط، 1977، ص 59-60.

ومنهم أيضا من وجه المراسلات إلى العلماء والأولياء يدعوهم إلى دعوة أولي الأمر للجهاد، ويشجعونهم على ذلك، ومن أهم هؤلاء نجد الرسالة التي بعثها ولي بني حسان أبو القاسم بن حجو (ت 956هـ/1549م) إلى كبار أولياء وعلماء فاس وباديتها، في النصف الأول من القرن السادس عشر، وهم سيدي عبد الله الهبطي (ت 963هـ/1556م) والخطيب سيدي موسى الوزاني (ت حوالي 970هـ/1562م) والخطيب سيدي الحسن بن عرضون (ت حوالي 950هـ/1543م) وسيدي عبد الوارث يصلوتي (ت 911هـ/1563م) والفقيه سيدي سلام بن الحسن، والحاج سيدي علي المدارس "طالباً منهم أن ينفقوا مما رزقهم الله من نعم الجاه في تحريض ولاية المسلمين على إعانة أهل الثغور بالرجال من كل قبيلة ومن حومات الحواضر بزادهم وأسلحتهم بالنوبة التي لا ضرر معها، ليحصنوا الأطراف، ويكثروا سواد أهلها بالرماة وأنواع الرجال، لا مشقة على الولاية في ذلك، ولا يفتقرون فيه سوى إلى تحريك اللحية واللسان، لكنهم بخلوا على أنفسهم وعلى المسلمين بالمصالح التي فيها عز الدين وتمذهبوا بمذهب الغافلين، فاجتهدوا وفقكم الله، والسلام عائد عليكم ورحمة الله وبركاته"³⁷.

من خلال ما سبق يتضح الدور الهام الذي قام به الفقهاء والأولياء في تأطير المغاربة، وتعليمهم المبادئ الأساسية للجهاد، وبذلك تمكنوا من تأسيس جبهة شعبية موحدة ضد المحتلين الإيبيريين حيث كان تأطيرهم بالكلمة والأموال والأمتعة، وكذا بالمشاركة إلى جانب المجاهدين في الثغور على اعتبار أنهم يدافعون عن الدين الإسلامي ضد التدخل الإيبيري³⁸ في السواحل المغربية، هذا ما جعل أثر هؤلاء يعم المغرب بكامله، وبذلك انضم إليهم الكثير من المتطوعين الذين أصبحوا من أتباعهم بعد تأطيرهم طبعا، ولعل هذا الانتشار الذي عرفته الزوايا في المغرب، كان من العوامل الأساسية التي ساعدتها على التوجه نحو الدعوة إلى توحيد البلاد، بل ودعم المؤسسة الحاكمة طبعا بمؤسسة أخرى انسجمت أهدافها معا، وتمثلت في دعم الأسرة الشريفة، الأسرة السعدية المنطلقة من الجنوب نحو الشمال بدعم من الأولياء والفقهاء.

خاتمة:

لقد ساهم شيوخ التصوف نهاية الدولة المرينية وبداية الدولة السعدية في تشكيل جبهة وطنية موحدة ضد الاحتلال الإيبيري، بعد احتلال العديد من المناطق الساحلية، من خلال التأطير

37 - الوارث أحمد: الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي، ص 512/2-513.

38 - العماري أحمد: معالم في منهج التغيير، ص 30-31، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1996.

الفكري المستند على مبادئ الشريعة الإسلامية، إلى جانب المشاركة الفعلية في الجهاد من طرف شيوخ التصوف، باعتبارهم القدوة في ذلك، فكانوا السباقين إلى التضحية بالأموال والأنفس في سبيل الوطن، مما كان له الأثر الإيجابي في نفوس المريدين الذي يزداد عددهم كلما وجه المتصوفة النداء للجهاد ضد المحتل، هذا ما جعلهم يتمكنون من تشكيل وحدة شعبية صوفية مغربية، انبثقت بمشاركة العديد من المتطوعين من مختلف مناطق المغرب.

سبّة المقاومة في الشعر المغربي حضور الذاكرة واستشراف العودة

د. عبد الله بنصر العلوي
أستاذ باحث، فاس

نحمد لكثير من الفعاليات الباحثة في معاودة التاريخ والذات والتراث، استشراف المستقبل إلى حيث الحضور المستمر لذاكرة "سبّة" في زمن نتطلع فيه إلى عودتها إلى الوطن لتواصل إشعاعها الحضاري في الفكر الإنساني.

كما أن ذكرى استحضار مرور ستمائة سنة على احتلالها منذ يوم الجمعة 14 جمادى الثانية 818هـ الموافق 21 غشت 1415م يحمل كثيرا من الدلالات :

الدلالة الأولى، الرغبة في صون سبّة العالم من خلال تاريخها المليء بالمواقف الفكرية والجهادية والصوفية، وبالمصنفات العلمية والأدبية والتاريخية، وبالأعلام في مجالات الدين والسياسة والحضارة.

والدلالة الثانية، الرغبة في معاودة التفكير الاستراتيجي في وضعها الراهن في حوار حضاري تستعيد فيه سبّة ماضيها المجيد في غد مأمول يصون هويتها المغربية. وما دعوة الملك محمد السادس أيده الله إلى ضرورة وضع ملف سبّة ومليلية والجزر الجعفرية قيد الحوار مع إسبانيا، وتجديد مقترح الملك الحسن الثاني رحمه الله بتكوين خلية تفكير، إلا سبيل لمراعاة ما تقتضيه الظرفية الدولية من أجل البحث عن منهجية تصون الحقوق التاريخية والوطنية والثقافية.

والدلالة الثالثة، دور المجتمع المدني الإنساني في المقاومة السلمية والحضارية ضد كل أنواع الهيمنة والاستبداد، وما كثرة الندوات العلمية والأكاديمية في مختلف توجهاتها ومجالاتها إلا مقاومة ثقافية ترفض الأمر الواقع وتصون مقومات الهوية الوطنية والحضارية.

والدلالة الرابعة، في استحضار هذه الذكرى، تتمثل في جهود ما بذله المغاربة في المقاومة بكل أشكالها من أجل تحرير هذه المدينة المجاهدة والسليبية. ومن وثائق أدبيات هذه المقاومة حضور الشعر

المغربي - باعتباره فاعلية أدبية وثقافية ووطنية وإنسانية - يحدد الارتباط بقيم الثقافة الإسلامية والوحدة الوطنية والتسامح الحضاري.. تجلت آثاره في العديد من المصنفات والدراسات، كما سجلت معالمه كثير من الدراسات قديما وحديثا.

تلك دلالات تستحضر سبّية وأبعادها في العلم والحوار والتمدن والإبداع، ساعية إلى حضور ذكرى احتلالها في ذاكرتنا الوطنية ومعاناتنا لوضعها الراهن، لنجدد العهد على التشبث بالمواطنة الثقافية التي تحرص على صون قيم التاريخ والذات والتراث، والتي تتطلع إلى قيم الوحدة الوطنية والتواصل الحضاري المنشود أملا في تفعيل سبل استمرارية سبّية العالم والمجاهدة والمقاومة. والنصر معقودة ألوته بقيم حوار الحضارات لا بصدامها¹.

إن مدينة سبّية أرض مغربية لها ماض مشرق في الفكر المغربي، فقد أسهمت بحظ وافر في تاريخ الثقافة المغربية منذ عهد الأدارسة إلى عهد بني مرين، أي طوال ثمانية قرون. فكانت بوتقة انصهار لفروع الثقافة الإسلامية، ومجما للتيارات الفكرية، نظرا لمركزها بين الشرق العربي وإفريقيا والأندلس². وقد تحقق هذا التمازج على يد أعلام كبار أنجبته هذه المدينة في مختلف فروع المعرفة والإبداع. ويكفي أن نذكر ابن سبع والقاضي عياض والشريف الإدريسي وابن رشيد وابن المرحل وغيرهم كثير ممن تبوؤوا المكانة العلمية السامية بين أعلام حواضر العالم الإسلامي.

إن مكانة مدينة سبّية - باعتبارها حاضرة ثقافية وفكرية - ظلت عبر عصور ازدهارها نبراسا مضيئا لحواضر المغرب والأندلس والمشرق. كما ظل إشعاعها العلمي ذا أثر فعال في الفكر المغربي خلال عصور احتلالها...، وما زلنا نقيم الندوات في سبيل بحث أثر هذه المدينة في تاريخ الثقافة الإسلامية ودورها في إثراء فروع المعرفة والإبداع من أجل استيعاب واقعها العلمي والثقافي...، وفي ذلك حضور لهذه المدينة المسلمة الأسيرة التي نحن إلى تحريرها.

إن ما قيل من قصائد في احتلال سبّية والدعوة إلى تحريرها يمثل واقعا، طالما ناشده الأدباء والعلماء في المغرب قصد التعبير عن مواقفهم الدينية والوطنية فدعوا إلى الجهاد والنضال والتحرير والمقاومة من أجل صون الإسلام بها، وفي ذلك استجابة للواقع المغربي ووعي بمتطلباته. وتلك سمة الشخصية المغربية التي اختارت الحرية ودافعت عنها بالعقيدة والسلاح. وإسهام المؤرخ والعالم والأديب والشاعر في هذا الدفاع ينطلق من الرؤية والمعاناة. ومن ثم كان كل من المعرفة والإبداع جهادا للحفاظ على العقيدة، ونضالا لإثبات الكيان الحضاري، ودعوة لتحرير ما احتل من أراضيها،

1 - من تقديم كتابنا: سبّية المقاومة أصداء احتلال سبّية ومحاولات تحريرها في الشعر العربي، مطبعة أنفوبرانت فاس، 2015.

2 - سبّية من خلال رجالاتها، لعبد العزيز بنعبد الله، مجلة المناهل، ع 22 ص 658.

ومقاومة للمغتصب المحتل. والأدب المغربي في مسيرته يعبر عن واقعه، ويصدر عن طبيعة حساسة واعية بما تؤول إليه البلاد، وهي عرضة لكل أنواع الأخطار المحدقة بها. ومثل هذا النزوع كان نابعا من الرؤية العامة للفكر المغربي، إذ توارت الذاتية بكل عوامل تأثرها وتفوقها ليسود الضمير الجماعي للتعبير عن الأمل الذي يصبو إلى تحقيقه الجميع. لذلك كان الجهاد والنضال والتحرير والمقاومة ظاهرة في الأدب المغربي عبر تاريخه. لأن الأجنبي باعتباره صليبيًا ومحتلا كان دائما بأبواب الثغور يقرع بالتي هي أشد وأقوى، فيجد مقاومة بالسلاح ونضالا بالكلمة حبا في تحرير الأرض.

ولا يكاد يخلو ثغر من ثغور الغرب الإسلامي تعرض للاحتلال إلا و كان الحضور المغربي قويا ينافح عن بيضة الإسلام ويجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، كما كانت الأشعار والرسائل تصور شراسة المحتل وضياح الأهل والمال والخوف على الدين، وتدعو إلى التثبث بقوة العزيمة والحث على الجهاد والاستشهاد. ويكفي أن نشير إلى موقف المغرب من سقوط مدن الأندلس في يد الصليبيين. فقد خاض المرابطون والموحدون معارك جهادية كبرى كالزلاقة والأرك لاسترداد الثغور والحصون الأندلسية. وكان الأدب المغربي صورة عن عصره، فاستجاب لاستصراخ الأندلس ودعا إلى الجهاد كما حاول المرينيون الدفاع عن الأندلس. وكان الأدب في عهدهم استنفارا للجهاد. وفي العصر السعدي - خاصة أيام المنصور - أصبحت الدعوة إلى اجتياز الأندلس مطلبا ملحا لدى الشعراء.

لقد كان سقوط الأندلس وبالا على المغرب إذ تجرأ عليه البرتغال والإسبان، فاحتلوا الكثير من ثغوره. ومن ثم نجد أصداء المقاومة في كثير من نصوص الأدب المغربي عبر عصوره، مما شكل ظاهرة أصبحت مجال حركة نضالية خاصة في العصر العلوي تختص بالثغور والمواقع. ويكفي أن نشير إلى الحركة الأدبية التي شهدتها استرجاع العرائش وأصيلة وحرب تطوان وحرب الريف واسترجاع الصحراء (من الثغور). أو الحركة الأدبية التي شهدتها ذكرى معركة وادي المخازن ووقعة إيسلي وحادثة بوفكران (من المواقع) مما تناوله كثير من الشعراء والمؤرخين والباحثين. ديدنهم في كل كتاباتهم الحرص على التواصل بين الحدث والتأريخ له وحضوره في مختلف النصوص الإبداعية. باعتبار أن التراث بالمغرب - كما يقول الدكتور عباس الجراري - "أداة حاسمة في الصراع والمواجهة ظهرت فعاليتها أيام المحنة والكفاح. وما زالت هذه الفاعلية قادرة على التأثير باعتبار التراث ملاذاً تؤول إليه الأمة عند الشدائد يضم صفوفها ويشحنها بالطاقات اللازمة عند التعبئة، ثم هو - بعد هذا - ملك جماهير الأمة وخيط الاتصال بها على الدوام، ولا حق لأحد أن يسلبها إياه"³.

3 - الثقافة المغربية في ظل صاحب الجلالة الحسن الثاني، لعباس الجراري، مقال بمجلة دعوة الحق، العدد 257،

يونيو / يوليوز 1986، ص: 34.

ولعل الشعر من أبرز مظاهر التواصل في التراث المغربي، باعتباره فنا يشكل أحد المعطيات الإبداعية والفكرية، لأن الأدب المغربي يجسد "معاناة العالم المغربي في تطلعه إلى التعبير عن الذات وآمال الواقع، فيتجاوب مع رؤاه الفكرية المتأثرة بالعلوم الإسلامية والمتسمة بالنزعة الروحية"⁴. ومن ثم يجب أن نتعامل مع التراث الشعري بالمغرب على أساس خصوصية تستمد معطياتها من أمرين اثنين:

أولهما أن مفهوم الأدب يشمل سائر العلوم والمعارف.

والثاني، أن الإبداع الشعري يشكل أحد الاهتمامات التي تكمل ثقافة العالم ليثبت تفوقه وجدارته بالعالمية أي يتمكن من فروع المعرفة والإبداع.

ومن خلال تحديد هاتين الخاصيتين في التراث المغربي باعتبار:

- كونه أداة حاسمة في الصراع والمواجهة.

- كونه مظهراً لمعاناة الذات والواقع.

وفي هذا السياق نسوق نماذج شعرية مغربية ممهدين لها بظروفها التاريخية.

لقد كان انتصار المجاهدين في بعض غاراتهم على محتلي سبتة بشارة بما فتح الله عليهم في حروبهم من نصر واستماتة. وقد كان عرض الأسارى بفاس عام 997هـ/ 1588م مناسبة لشعراء أحمد المنصور السعدي أن يعزوا إليه بفتحها.

يقول محمد بن علي الفشتالي:

هذه سبتة تزف عروسا ❁ نحنوناديك في شباب وشيب
وهي بشرى وأنت كفؤ اللواتي ❁ كافات بعلها بفتح قريب⁵

وبقيت سبتة ترسف في أغلال الاحتلال إلى عهد المولى إسماعيل الذي حرر العديد من الثغور المغربية، ففتح المعمورة عام 1092هـ وطنجة عام 1095هـ والعرائش عام 1101هـ وأصيلة عام 1102هـ. أما سبتة فقد وجه إليها حملات منذ عام 1106هـ وحاصرها بعد ذلك حصارا شديدا دام ستة وعشرين عاما، بل أكثر من ذلك⁶ دون أن يفلح في استرجاعها.

4 - أبو سالم العياشي الأديب المتصوف، لعبد الله بنصر العلوي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ص: 7.

5 - مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا لعبد العزيز الفشتالي تحقيق عبد الله كنون، ص: 51 / الاستقصا: 119/5.

6 - ذكر محمد داود أن الحصار بقى ما يقرب من ثلاثين سنة. تاريخ تطوان 30/2.

وقد وقف شعراء المولى إسماعيل يشيدون بهذه الفتوح ويتغنون بالانتصارات . وقد نالت سبته حظا وافرا من هذه الأشعار التي عبرت عن مواقفها بوضوح، إذ كان الجهاد المحور الأساسي والمضمون البارز، استجابة للنسق الفكري السائد في الثقافة المغربية.

لقد كان عهد المولى إسماعيل عهد قوة وجهاد، إذ سعى إلى تحقيق الوحدة الوطنية وطرده الغزاة من الثغور المغربية. ونجد أصداء لهذا الجهاد في أشعار هذا العهد التي عبرت عن مدى الارتياح الذي خلفته الحملات الجهادية .

يقول أحمد بن عبد العزيز العلوي:

هذا هو العز والدين القويم فقد ❁ لاحت به من كتاب الله أنوار
انصر حمى الدين واكفف من يكايده ❁ لقد سما قدركم واعتز مقدار⁷

إن الدعوة إلى المقاومة باعتبارها جهادا في سبيل الله يشكل ظاهرة لدى شعراء المولى إسماعيل. وقد اتخذت هذه الظاهرة أنماطا من القصيد، فالقصيدة المادحة والواصفة والإخوانية والشكوى والتوسل كونت مجالا خصبا لهذه الظاهرة التي تعلق بتحرير سبته.

القصيدة المادحة

ألح شعراء المولى إسماعيل في مدائحهم على استرجاع سبته بعد أن تم استرجاع طنجة والعرائش خاصة.

يقول عبد الواحد البوعناني بمناسبة فتح العرائش في قصيدته:

ألا يا أهل سبته قد أتاكم ❁ بسيف الله سلطان وقور
إذا ما جاء سبته في عشي ❁ تناديه إذا كان البكور⁸

ومن القصائد المادحة في نفس السياق قصيدة عبد السلام جسوس التي يتطلع فيها إلى تحرير سبته وباقي الثغور المغربية المحتلة. يقول مادحا المولى إسماعيل:

7 - الأنوار الحسنية لأحمد بن عبد العزيز العلوي، ص: 82-83.

8 - راجع: نزهة الحادي بأخبار القرن الحادي لليفرنى تحقيق هوداس، ص 307 والاستقصا، ص 74/7.

رفعت منازل سبته أصواتها ❀ تشكو إليكم بالذي قد هالها
مع بادس وبريحة فتعطفوا ❀ وتنبهوا كي تسمعوا تسألها
يا ابن النبي الهاشمي محمد ❀ قل يا أمير المؤمنين أنا لها
فلقد قضيتم للعرائش حاجة ❀ مع طنجة فاقضوا الذي آمالها⁹

والقصائد المادحة على عهد المولى إسماعيل كثيرة، كلها تنشّد الجهاد، وتثني على الفتوحات وتحث على استمرارها. وقد استمدت لغتها من ثقافة أصحابها، فاكستت قصائدهم وضوح الدعوة شعورا منهم بمسؤوليتهم الوطنية. لذلك كانت قصائدهم المادحة واقعية في لغتها وشاعريتها وأفكارها دون غلو ولا مبالغة.

القصيدة الواصفة:

ومن قصائد الوصف نجد قصيدة محمد بن زاكور في وصف عشية برأس الطرف بتطوان حيث تراءت له مدينة سبته منادية: التحرير.. التحرير، يقول فيها:

وقد بدت سبته منه مناديه ❀ يا أهل دين الهدى، هل عندكم عطفه؟
هل غيرة تذر الصليب منكسرا ❀ حتى يظل الرشاد لامحا عطفه؟
هل غيرة تقتضي طهري من نجس ال ❀ الشرك بمطلق دين الملة الصرفة؟
هناك أنشد والآمال دانية ❀ والكفر عمت ذوي شوكته الرجفه
الحمد لله أهل الحمد ملهمه ❀ مخزي النصارى ومولى من هدى لطفه¹⁰

ويمزج الشاعر في قصيدته الإحساس بواقع المدينة السلية وآمال تطهيرها من نجس الشرك وبين رؤية جهادية. معبرا عما يختلج في فكره من معان وأحداث. ولم تكن تلك المعاني إلا شعورا بالأنس والمسرّة، كما لم تكن هذه الأحداث إلا تكديرا لصفو العشية لأن الأندلس تشكو احتلالها والمدينة السلية تنادي بالجهاد.

القصيدة الإخوانية :

ومن شعر الإخوانيات أبيات لمحمد بن الطيب العلمي أثناء سفره إلى تطوان للقاء صديق له. فكتب له منها - وهو بمحلة سبته - يستأذنه في الوصول إليه، لكن الشاعر راعه أن يحل بسبته وهي دار سلبية، فلمح إلى ذلك دون أن يفصح عن مكنونه. يقول:

9 - الوافي في الأدب العربي بالمغرب الأقصى لمحمد بنتاويت ، 3 / 841.

10 - ديوان الروض الأريض في بديع التوشيح ومتقى القريض لابن زاكور، مخطوط خ. الوطنية 357 ك. - تاريخ تطوان : 1 / 421. تاريخ سبته لبنتاويت .

دخلت تطوان لما * ضاق اشتياقي وشتا
وهأنذا مقيم * مشّت العقل شتا
عندي من الصبر نزر * ومن همومي شتى
أريد سبّة لكن * لن أبرح الأرض حتى¹¹

وللشاعر عدة قصائد في مدح تطوان ووصف أهلها بالرباط والاستشهاد في سبيل الله لتحرير سبّية. فيرحل إلى سبّية واصفا واقعها:

فسرنا إليها باشتياق يسوقنا * وما كلت الأقدام من تعب السير
ولما نزلناها رأينا مشاهدا * بهاقهر الجبار طائفة الكفر
كأن رقاب الكافرين بسبّية * رقاب الأعادي في حُنين وفي بدر
سكرنا بأكواس الشجاعة بينهم * فتبصر كل الناس سكرى بلا خمر
وقد أحرقت كل القلوب بطالة * عجت لإحراق القلب بلا جمر
عدمت اصطباري في معالم سبّية * وما للذي يهوى الجهاد وللصبر¹²

وتضمّر هذه القصيدة شعورا مستقبليا إزاء سبّية، حاول ابن الطيب العلمي من خلاله أن يعبر عن آماله ببقاء إخوانه وبحرية المدينة الأسيرة. ومن ثم لم يخل الموقف الذاتي من التعبير عن موقف جماعي بضرورة الجهاد لتحرير المدينة.

قصيدة التوسل:

من قصائد التوسل قصائد محمد بن علي الرافعي التطواني، وهو من أكثر شعراء العهد الإسماعيلي نظما في المقاومة لتحرير المدينة، يقول:

يارب سلم ونج كل متدب * إلى الجهاد وحث فيه واجتهدا
وصار بالحزم يبغي نصر ملته * وعزمه في الجهاد دائما أبدا
داروا بسبّية أهل الصدق وابتدروا * شقوا أخاديد لاستئصال من جحدا
يرجون وعد الإله الحق ربهم * من كونهم في الجنان يحشرون غدا
فكم وقائع في الحرب لهم شهدت * بأنهم في رهان السبق خير هدى

11 - الأئيس المطرب ... لمحمد بن الطيب العلمي، ص: 313. - تاريخ تطوان: 140/3.

12 - تاريخ تطوان: 137/3.

كم مدافع في البيداء قد وضعت ❀ ترمي البلاد فينسى صقعها الرعدا
فارددهم بسلام بعد فتحهم ❀ ما أملوا من ديار الشرك دار عدى
مرادهم سبته البيضاء ومنيتها ❀ سهل لهم فتحها يا خير من قُصدا
فلا صلاة تقام في مساجدها ❀ ولا قرآن بها يتلى كما عهدا¹³

ويسجل لنا الرافعي في إحدى منظوماته الشعرية إجباره مع أهل تطوان على الرباط بسبته واعتذاره بضعف حاله، منيا عنه ولده ومكتريا شخصا آخر. فنظم قصيدة في مدح قائدها، منها:

نذبت بني وجهزته ❀ شهورا تزيد على عد عام
وبعد، اكرتيت إلى رجل ❀ بجعل من المال والخطب طام
وإنني رقيق ولي أدب ❀ وقلبي من الشكوى فيه كلامي
وأفزع للشعر إن نابني ❀ صروف من الدهر أو من هيام¹⁴

لقد استجاب الرافعي في تضرعه لواقع احتلال سبته وحصار المجاهدين لها معبرا في توسلاته عن أمل اقتراب موعد الفتح لخلاصها.

ومن خلال هذه الأنماط أسهم شعراء العهد الإسماعيلي¹⁵ في التعبير عن فرحهم بتحرير الثغور ونكدهم باحتلال سبته وآمالهم بتحريرها. وقد كان موضوع المقاومة أحد العوامل القوية في النهضة الأدبية التي عرفها العهد الإسماعيلي والتي جسدت اتجاهها جهاديا استمد معالمة من الرؤية الفكرية ذات النسق الديني شأن سائر المعطيات الثقافية والاجتماعية في التراث المغربي.

وبموت المولى إسماعيل 1139هـ/ 1707م تنفس الإسبان الصعداء بفك الحصار عن سبته وتفرق المجاهدين، بسبب ما ساد المغرب من اضطرابات وفتن.

وفي عهد سيدي محمد بن عبد الله انصرفت الهمم إلى فتح مليلية ليسهل استخلاص سبته بعد ذلك، لكن حادث الصلح حال دون تحريرهما¹⁶. وبعد ذلك كانت محاولات المولى اليزيد بنقض الصلح مع الإسبان وباستنفار المغاربة للجهاد على تحرير المدينة من الاحتلال لولا تقاعس بعض قبائل الحوز كما يذكر المؤرخون¹⁷.

13 - تاريخ تطوان، ص: 1/ 399-400. - تاريخ سبته، ص: 197 - 198.

14 - تاريخ تطوان، ص: 31/2.

15 - انظر: المنزع اللطيف في التلميح بمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف لعبد الرحمن ابن زيدان.

16 - تاريخ الضعيف، 178 - الاستقصا، 40/8، تاريخ سبته، ص 200.

17 - تاريخ الضعيف، 221 - تاريخ سبته، 200، رسائل عربية حول المغرب في عهد مولاي اليزيد، مجلة تطوان.

وفي عهد المولى سليمان لم تستغل الأوضاع الدولية من خلال الصراع الفرنسي الإنجليزي حول إسبانيا - لاسترجاع الثغور المغربية ومنها سبته¹⁸.

وقد تمثل شعراء هذه العهود¹⁹ واقع احتلال الثغور، وكانوا يحرضون ملوكهم على تحريرها.

فحمدون ابن الحاج في قصائده المادحة يلح على ضرورة النصر، ويتوعد النصارى بالويل والثبور، وإن لم يخص الشاعر سبته بالذات فإن هذه المدينة السلبية تضحى مع الثغور المغربية المحتلة الأخرى هاجسا لديه لحرصه على إذكاء روح الجهاد ليلم النصر على عباد الصليب. يقول:

إليك رياح النصر زفت مراكبا * جوارى تجلى والقلوع لها أزر
يسابقها في الماء موت وفي السما * طير ولا حوت حكاها ولا طير
تبدت بها أسد وخيل سوابق * ولاح لعباد الصليب بها خمر
فأسادها الأبطال تأتيك رغبة * ومبغضك البطال يرهقه القسر
وما الخيل إلا الخير أجمع قادم * عليك وأن الخيل جانسها الخير
وويل لعباد الصليب وجمعهم * ففي يومنا خمر وفي غده أمر²⁰

لذلك كانت معاني الشجاعة - رغم أنها من عناصر القصيدة المادحة - تمثل في سليمانيات الشاعر دعوة إلى الجهاد، وكانت لغتها شعرية اعتمدت على عناصر من الوصف والصنع، مما اتسم به شعر حمدون ابن الحاج.

وفي قصيدة مولدية يأمل الشاعر في قسم التوسل اليوم الذي تتحقق فيه بشرى تحرير سبته والثغور المحتلة الأخرى. يقول:

18 - كان نابليون قد عرض على المولى سليمان الاعتراف بأخيه ملكا على إسبانيا مقابل تسليمه سبته ومليلية، فرفض المولى سليمان العرض مراعاة لأصدقائه التقليديين من الإنجليز والإسبان. راجع تاريخ سبته، ص. 206، سبته ومليلية، ص. 43، الجهود المغربية من أجل استرجاع سبته في عهد مولاي سليمان، لمحمد المنصور، مجلة كلية الآداب، الرباط، ع. 5-6، ص. 29-44.

19 - من شعراء هذه العهود: أبو حفص الفاسي والقاضي العمري وابن النون ومحمد بن الطيب سكيرج والنهامي بن الطيب أمغار محمد بن عثمان المكناسي وحمدون ابن الحاج وسليمان الحوات.. راجع: الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، لمحمد الأخضر، الوافي لبنتاويت.

20 - النوافح الغالية في الأمداح السليمانية، لحمدون ابن الحاج، تحقيق ودراسة أحمد العراقي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

ربي أعز المسلمين بيمنكم ❁ وأذل أهل الكفر أين تسللوا
واعد عاملة الثغور بحزمه ❁ ما أذهب الأعداء حتى أجفلوا
وخلا لكم حجر النكور وأبشروا ❁ بخلاء سبته بعده سيحصل²¹

وتحمل هذه الأبيات هموم عصرها وهي تجسد موقف الشاعر وإرادة ممدوحه لاسترجاع الثغور المحتلة.

ولعل الحركة الثقافية التي عرفت هذه العهود سجلت فترة ازدهار - رغم سنوات الاضطراب الثلاثين وما رافقها من أزمات اقتصادية واجتماعية²² - أكد الشعر فيها حضوره وفعاليته في رصد إمكانيات تجاوز الواقع بضرورة القيام بالجهاد للدفاع عن الوطن والدين؛ وفي التعبير عن ذلك من خلال معطيات الوعي بالنسق الفكري السائد.

وتتأزم ظروف المغرب في عهد المولى عبد الرحمان بن هشام وابنه المولى محمد بن عبد الرحمان، ففي عهد الأول كانت موقعة إيسلي 1260هـ/ 1844م لرفض الاحتلال الفرنسي للجزائر²³ وفي عهد الثاني كانت حرب تطوان 1276هـ/ 1860م بسبب رفض التوسع الإسباني في حدود سبته²⁴ وقد كانت الحربان وبالا على المغرب، وقد أثر ذلك في أشعار هذه المرحلة، إذ تفاعلت مع الأحداث وعبرت عن موقف الرفض ودعت إلى فرض الجهاد لمقاومة الاحتلال.

ففي أشعار موقعة إيسلي - وإن لم تنص على تحرير سبته - نجد الحث على الجهاد والاستماتة في الاستشهاد يشكل ظاهرة استقطبت الفكر والواقع كما في أشعار محمد غريط ومحمد بن إدريس العمراوي.

يقول محمد غريط:

موتوا كراما فإن الحريأنف من ❁ معيشة تدع الحليم حيرانا
لا موت أفضل من موت الجهاد لمن ❁ يرجو من الله رحمت ورضوانا
كونوا صلابا على أهل الصليب فلا ❁ دين لمن لعدو دينه لاننا²⁵

21 - ن.م، ص 200.

22 - الحياة الأدبية، ص 269 و 278.

23 - الاستقصا، 36/9 و 49، النضال في الشعر العربي بالمغرب، لعباس الجراري، ص 14 - 31.

24 - الاستقصا، 84/9، النضال...، ص 32 - 46.

25 - النضال...، ص 20 - 21.

ويقول محمد بن إدريس العمراوي:

يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد ❁ فالكفر قد شارككم في البلاد
والشرك قد نصب أشراكه ❁ مستعبدا بكيده للعباد
ويا حماة الدين ما صبركم ❁ والمشركون يطلبون البداد
وما هذه الغفلة عن صدهم ❁ وأنتم في الحرب أسد الجلال²⁶

وفي حرب تطوان استجاب الشعر المغربي أيضا للواقع وللنفوس، وتفاعل مع مواجهة العدو مثلما نجد في أشعار المفضل أفيلال ومحمد القيسي وأحمد الجندي وغيرهم كثير²⁷، على اختلاف بينهم في رؤيتهم للحدث. فالمفضل أفيلال يأمل الصبر على المكاره ويتنظر الخلاص قائلا:

يا أهل تطوان صبرا ❁ فما لخطب أدامه
دوام حال محال ❁ وهل لظل أقامه
إن غاب نجم سعود ❁ ولاح نجم شآم
فسوف يطلع بدرا ❁ يمحو سناء ظلامه²⁸

ويدعو أحمد الجندي إلى المقاومة قائلا:

بقوة حاربوا الكفار وامثلوا ❁ أمر الإله وما أتاهم الكدر
حموا حريمهم بأهل دينهم ❁ فليس للكفر في حريمهم وطر
بعزة الله عززن ونصرته ❁ على كفار وكل من له ضرر
فلو نظرت إلى المحاسن وقرا ❁ لجاءك النور بل والشمس والقمر²⁹

أما محمد القيسي فيبحث عن الأسباب قائلا:

26 - محمد بن إدريس وزير مولاي عبد الرحمان وشاعره، للناصر الفاسي، مجلة العلمي، ع 1، س 1، يناير، أبريل 1964، ص 165، النضال، ص 24.

27 - راجع أشعار تطوان في: تاريخ تطوان، ص 250/5 - 274، وثيقة تاريخية عن تطوان، نشر محمد بنتاويت، مجلة تطوان، ع 1، ص 50-13/ مظاهر يقظة المغرب الحديث لمحمد المنوني ص 275/1 - 296.

28 - وثيقة تاريخية، ص 21.

29 - ن.م، ص: 19.

تصبر لحكم الله في القوم إذ جرى ❁ عليهم بأنواع الوبال المحتم
على جملة الإسلام في أرض مغرب ❁ وقد صادفت تطوان سحرا بطلسم
تبدد في البلدان بالقهر أهلها ❁ بأسباب ظلم الظالمين المحرم
وكان بها بعض تجبر بالغنى ❁ فأضحى على ذي فاقة يتهمهم
به سلط المولى النصارى عليهم ❁ بعد وعدة وجيش مقدم³⁰

ثم يشير إلى أن ما لحق بتطوان كان بسبب احتلال سبّية:

فأوقدوا نار الحرب في أرض سبّية ❁ وزادوا بها برا وبحرا تقدموا³¹

وفي هذه المرحلة قوي الإحساس بواقع الاحتلال ومدى فداحته على البلاد. ومن جراء تلك الأحداث أصبح الحديث عن المقاومة والحرب في عهد المولى الحسن مظهرا فكريا تجاذبت حوله الفتاوى والآراء. ولعل في تبصر أهل الحل والعقد بالواقع المغربي وتدهور إمكانياته الاقتصادية، وما به من غاية الضعف وقلة الاستعداد³²؛ ما حال عن الاستمرار في الرباط لتحرير سبّية بسبب الوضع الداخلي وما انتابته من فتن خلف شعورا باليأس والانتكاس، وبسبب المناوشات الأجنبية التي قضت المضاجع وكشفت نوايا التسلط والنهب.

وقد أحس شعراء المولى الحسن بهذا الواقع فتضمنت قصائدهم المادحة ومولدياتهم معاني الشجاعة والإقدام، كأنها في وعي الشاعر الأمل الذي يراود النفس بالانتصار. يقول محمد بن محمد غريط:

سيف اعتصامك بالإله مجرد ❁ ومهتد ومهتد ومؤيد
سيف الحقيقة بالشريعة يزدهي ❁ ونجاده بضمّان نصرك يعقد
قلدته للفتح إرثا خالصا ❁ مع ما سواه من السيوف معدد³³

30 - النوافح الغالية، ص 25.

31 - النوافح الغالية .

32 - راجع الموضوع، الاستقصا، 182/9 - 192.

33 - الوافي، ص 926/3.

ويدخل المغرب في عهد المولى عبد العزيز وضعا دوليا ومعقدا تتناول فيه الدول الأجنبية على سيادة المغرب. وفي خطاب الطاهر بن محمد الإفرائي للشيخ أبي العباس الجشتيمي استصرخ لما يهدد المغرب من الاحتلال، يقول:

فيا بدر أفق الدين يا ليث غابه * ويا غوث ملهوف ويا خير منجد
تدارك ذماء الدين واسمع صرخه * وشمّر إلى نصر الهدى وتجلد
فقد أنشب الكفر المداهن نابه * ومد إلى سرح الهدى كف مفسد
وكاد بأنواع المكايد أهله * وصار ينادي خامري وتلبدي
اسر احتساء في ارتغاء وماله * سوى الدين من مرمى يرام ومقصد
وقد بلغ السيل الزبى بظهوره * وإن لم يداو العُرُّ بالكي يـزدد³⁴

وفي القصيدة استنفار من يتصدى لجهادهم:

يجاهد في الله العظيم عدوه * بإقدام ليث في الكريهة محرد
يشب لظى الهيجا بقلب مشيع * وكف بصير بالطعان معود
وإطراق ثعبان وكيد ثعالة * وتصميم فهد في جراءة فرهد
ويختال ما بين الصفوف كأنه * عروس تهادى بين خود وخرد
على كل طرف سابح ومطهم * قوي القرا عبل كصرح مـرد
بيض سيوف أو بسمر مدافع * مزلزلة إن يبرق السيف ترعد³⁵

وللشاعر قصائد عديدة في مدح المولى عبد الحفيظ³⁶ منها:

وإني الخلافة فاستقامت بعد أن * عفى مراسمها الضياع وغيرها
وإني وقد مد الضلال إلى الهدى * كف الردى قد عابه مستنصرا
لبى صريخ الدين بالعزم الذي * لا تشني جنباته أنى انبرى
وبدا بتطهير البلاد مدافعا * عنها عدوا قد طغى وتكبرا³⁷

34 - سوس العالمية، لمحمد المختار السوسي، ص 115.

35 - ن.م. ص.

36 - ن.م، ص 113.

37 - المعسول، لمحمد المختار السوسي، 46/4، النضال، ص 67.

تلك نماذج شعرية سجلت مشاعرها الإسلامية والوطنية نحو سبته السليبية ، وأرخت لواقعها في سياق الحرص على تحريرها . وفي عهد الحماية أضحت سبته وكل بلدان المغرب المحتلة مطلبا وطنيا بجهد الملك الراحل محمد الخامس طيب الله ثراه لتحرير البلاد من الاستعمار .

وفي عهد الاستقلال لم تتأت عودة سبته و معها مليلة والجزر الجعفرية إلى الوطن الأم ، وكان حرص الملك الراحل الحسن الثاني رحمه الله كبيرا على تحقيق الوحدة الوطنية ، فدعا إلى تكوين خلية تفكير من أجل عودتها إلى المغرب . كما اهتم الملك محمد السادس نصره الله بذلك داعيا إلى الحوار مع إسبانيا ..

لذلك كان مطلب عودتها مطلبا وطنيا وسياسيا وحضاريا كثيرا ما ناشده المغرب في المحافل الدولية . وقد استجاب الشعر المغربي الحديث³⁸ لواقع الاحتلال عند جل شعرائه الذين عبروا بشتى أشكال التعبير، كما عند محمد الحلوي، وعلي الصقلي، وعبد العلي الودغيري، وأحمد المجاطي، ومحمد الميموني، وعبد الكريم الطبال، وغيرهم حيث كانت دلالات ثورية وتحررية تحمل أدبيات المقاومة والصمود من أجل عودة سبته و معها مليلة والجزر الجعفرية ، دعما لصون الهوية المغربية وحفظ الوحدة الوطنية

يقول محمد الحلوي:

ستعود جوهرتي التـي ❀ سـرقت إلى العـقد النـضيد
ويذوب إصرار الغـزاة ❀ بعزمنـا ذوب الجليـد
وتـردد الـدنـيا لـعودة ❀ سـبـتـي أحـلى قـصـيد
ويرفرف العلم المـخـضب ❀ في سـمـائك مـن جـديـد
قسـمـا سـيجـمـعـنـا الزـمـان ❀ و نلتقـي في يـوم عـيد !

إن سبته حاضرة في الذاكرة الثقافية المغربية والإسلامية والدولية، ومطلوب من الباحثين والأدباء والشعراء وكل المبدعين معاودة تاريخها وتراثها، وإسهامها الحضاري الكبير ...، تحقيقا لصون ذاكرتها، واستشرافا لعودتها إلى الوطن لتواصل إشعاعها الحضاري في الفكر الإنساني.

38 - أصدر كتاب في الموضوع : سبته في الشعر المغربي قديما وحديثا للدكتور محمد محمد العلوي، منشورات مكتبة سلمى، تطوان، 2012.

دعم مجلة دعوة الحق للقضية الجزائرية (1957م - 1962م)

ذ. أحمد بلخيري

فاس

تناولت العديد من المجلات العربية، أحداث ثورة التحرير الجزائرية، كمجلة الفكر التونسية والآداب اللبنانية والعربي الكويتية، وغيرها من المجلات السورية والعراقية والمصرية.

إلا أنها لم ترق جميعا إلى ما بلغته مجلة دعوة الحق، في موقفها الداعم والمستمر للثورة، فمنذ صدور العدد الأول من المجلة، حظيت القضية الجزائرية بمكانة متميزة على صفحات المجلة، بل يمكن القول إنه لم يخل عدد من أعداد المجلة من سنة 1957م إلى سنة 1962م من ذكر الجزائر وتتبع أخبارها وقضاياها. وستفرد لها بابا ثابتا بعنوان: "صفحة الجزائر" إلى أن حصلت على استقلالها. وفي الحقيقة يصعب تتبع كل ما ورد في المجلة بشأن الجزائر، لأنه يشكل ثروة هائلة من الوثائق والمعلومات والمقالات، والخطب الملكية في شتى المناسبات، وأخبار المؤتمرات والقصائد والمقطوعات الشعرية، تشغل في مجموعها رصيда بمئات الصفحات.

لذلك سنعمد إلى إيراد لمحات مختصرة حسب الترتيب الكرونولوجي مما تضمنته أعداد المجلة ما بين 1957م - 1962م حيث يظهر بجلء مدى انخراط المجلة ودورها الداعم والمساند لثورة الجزائر.

- مجلة دعوة الحق وثورة الجزائر

في العدد الأول من المجلة نجد مقالا للأستاذ الرحالي الفاروقي بعنوان "استقلال جميع العرب هو الكفيل بحفظ مصالح العرب" مما جاء فيه: "وما دام شعب الجزائر، وهو بين المغرب وتونس"

في معركة حياة الحرية، وما دام الغاصب مكابرا ومعاندا في هذا الحق، فالاستقلال لم ينته بعد والمعركة ما زالت مستمرة"¹.

وفي نفس العدد بالصفحة السياسية، نجد مقالا للأستاذ عبد المجيد بنجلون بعنوان "الأزمة المزمنة"، يحلل من خلاله سقوط حكومة جي مولي بسبب قضية الجزائر المكافحة... "فالمشكلة الكبرى التي لا يجزئ أحد من رؤساء الحكم في فرنسا على مواجهتها بشجاعة، هي مشكلة الجزائر... لأن الحرب في القطر الشقيق تكلف الحكومة الفرنسية مليارا ونصف المليار من الفرنكات يوميا"².

وفي العدد الثاني - نونبر 1958م، نجد عنوانا لافتا للقضية الجزائرية في باب مذكرات ديبلوماسي تحت عنوان "السبوتنيك الجزائري":

"الجزائر في الحفلات، الجزائر في الصحف، الجزائر في الراديو، الجزائر في كل مكان، إنه الاسم الذي ينافس السبوتنيك الروسي في سرعة طوفانه بالكرة الأرضية، حقيقة هائلة تدركها البشرية، أقزام باريس فقط هم الذين بلغ بهم السخف حد محاولة الاستخفاف بالسبوتنيك الجزائري"³.

وفي الصفحة السياسية من العدد الثالث في السنة الأولى للمجلة نجد التعليق المعبر التالي والمواكبة الدقيقة لما يجري بالجزائر، وإدائته للسياسة الاستعمارية.

"وإذا تركنا المغرب جانبا وابتعدنا عنه قليلا إلى الخارج، وجدنا المعركة في القطر الجزائري الشقيق فالقتل والتشريد والتخريب وانتهاك الأعراض وكبت الحريات، أصبحت شعار الحركات والسكنات هناك وقد حدثت مجازر رهيبة خلال ذلك الشهر... أما في الميدان السياسي فإن حكومة باريس بدأت تستعجل من أمرها ما كانت تستأجل، انتظارا للقضاء النهائي على الثورة، فقد اقترب ميقات اجتماع الأمم المتحدة، وأصبح لزاما على فرنسا أن تواجه الضمير العالمي المستنكر لخططها الحربية وأفكارها الجامحة"⁴.

وعلى امتداد ست صفحات بالعدد الأول 1958م نقرأ مقالا للأستاذ المهدي البرجالي بعنوان "الجزائر مسبر التقدمية الفرنسية" يوضح فيه ازدواجية خطاب الأحزاب الاشتراكية ونفاقها، وينوه في نفس الوقت، بالمواقف الشجاعة لبعض المفكرين الفرنسيين كسارتر ومورياك⁵.

1 - مجلة دعوة الحق س 1 ع 1 / 1957 ص 28.

2 - نفس المرجع، ص 35.

3 - مجلة دعوة الحق س 2 ع 2 / 1958 ص 52.

4 - دعوة الحق ع 3 سبتمبر 1957 ص 35.

5 - دعوة الحق ع 1 سبتمبر 1958 ص 20.

وعلق على المقال الدكتور عبد العزيز الأهواني، الملحق الثقافي بسفارة الجمهورية العربية المتحدة، في الباب الذي تخصصه مجلة دعوة الحق "العدد الماضي في الميزان".

أما دراسة السيد المهدي البرجالي عن قضية الجزائر فهي دراسة من أحاط بموضوعه إحاطة شاملة وتتبعه منذ أزمان فألم بتفاصيله⁶.

وفي نفس العدد نقرأ الخبر التالي: نصف ساعة تنفيذا لما قرره الكتابة الدائمة لمؤتمر طنجة في اجتماعها الأخير في تونس، توقف عن العمل لمدة نصف ساعة كل فرد في تونس والجزائر والمغرب، وذلك من الساعة العاشرة إلى العاشرة والنصف من صباح يوم الثلاثاء 16 شتنبر 1958م إعلانا للتضامن مع الشعب العربي في الجزائر في كفاحه المقدس من أجل إنسانيته وكرامته وحرية واستقلاله.

وفي العدد التاسع من سنة 1958م، أوردت المجلة بنصها الكامل في أربع صفحات المذكرة التي قدمها ممثلو الشعب الجزائري لمؤتمر اللجان الوطنية لليونيسكو المنعقد بفاس يناير 1958م بعنوان: "الوضعية الثقافية في الجزائر" وهي وثيقة هامة تفند بالحجج والإحصائيات دور المستعمر الفرنسي في تخريب الثقافة الجزائرية وتجهيل المجتمع⁷.

- تطور القضية الجزائرية

مع اشتداد الثورة الجزائرية، ومع الزخم الذي شكلته عربيا ودوليا، ومواكبة منها للحدث، خصصت مجلة دعوة الحق بابا ثابتا للثورة الجزائرية في كل أعدادها وتم الإعلان عن ذلك في عدد مارس 1959م:

"ابتداء من العدد المقبل تخصص مجلة دعوة الحق بابا خاصا للشقيقة المكافحة الجزائر تتحدث فيه عن تطورات القضية الجزائرية، وتنشر أنباءها وتعاليق السياسة ورجال الفكر عليها، كما تنشر فيه الآثار التي تخدم قضية الحرية الإنسانية في الجزائر، بأقلام كتاب وأدباء من الجزائر نفسها ومن غيرها من الأقطار الأخرى للعروبة.

اقرأ في العدد المقبل من صفحة الجزائر:

- تحية الجزائر قصيدة بقلم صالح خرفي.

6 - دعوة الحق ع 2 نونبر 1958.

7 - دعوة الحق ع 9 مارس 1958.

- العروبة والألم بقلم ميشل عفلق⁸.

ووفت المجلة بالتزامها وحمل عنوان الباب المخصص للجزائر:

- "القضية الجزائرية في شهر"،

وبوب على الشكل التالي:

- الوضع السياسي

- الوضع العسكري

- آراء أجنبية

وإليك التعليق التالي عن بعض ما كتب حول هذا الباب: "إنه باب النضال الحقيقي، إنه باب البطولة التي علمت الإنسان معنى البطولة، إنها قضيتنا وكل ما يكتب عن الجزائر يعيد إلينا كعرب ثقتنا بأمتنا العظيمة"⁹.

- القضية الجزائرية في شهر

هو العنوان الذي اختارته مجلة دعوة الحق لمواكبة القضية الجزائرية بأبعادها العسكرية والسياسية والديبلوماسية والإعلامية، مع تغطية للصحف الفرنسية والأجنبية والعربية، في تناوُلها لأخبار الجزائر وكفاحها من أجل الحرية. وأصبحت المجلة منبرا للدفاع عن عدالة القضية الجزائرية، وشغل هذا الباب حيزا معتبرا من حجم المجلة، فمن خلال أربعة أعداد من العدد التاسع السنة الأولى مارس 1958م إلى العاشر من سنة 1959م بلغت صفحات القضية الجزائرية عددا هاما يعكس كثافة أخبار الجزائر ومحوريتها لدى هيئة التحرير.

- الجزائر في طريق الاستقلال

بعد الضربات التي تلقاها المستعمر الفرنسي والاعترافات المتتالية بالحكومة المؤقتة، وإرغامه على الدخول في مفاوضات مع جبهة التحرير، أصبحت صفحة الجزائر بالمجلة تحمل عنوان الجزائر في طريق الاستقلال... واكبت من خلاله المجلة سير المفاوضات الجزائرية الفرنسية والانتصارات التي أحرزتها جبهة التحرير، والدعم الذي تلقتة من القوى التحررية.

وتعرضت في نفس الوقت للمناورات الفرنسية وممارسات غلاة الاستعماريين.

8 - دعوة الحق مارس 1959 ص 3.

9 - دعوة الحق 9 يونيو 1959 ص 84.

وتعاقب على تحرير هذا الباب مجموعة من الكتاب من المغرب والجزائر أبرزهم محمد الغربي، وأحمد مراد، ومحمد المحفوظ، والمهدي البرجالي. ففي العدد الأول أكتوبر 1959م يطالعنا مقال الأستاذ المهدي البرجالي، على امتداد ثمان صفحات، بعنوان "المعركة الدبلوماسية بين الجزائر وفرنسا" يستعرض من خلاله الخطوات الواسعة¹⁰ التي حققتها حكومة الرئيس عباس، ومدى الآفاق الرحبة التي افتتحتها في المجال الدولي العام، فهي تنعم الآن باعتراف كثير من القطاعات الدولية الهامة¹¹ وكان التصريح الروسي واضحاً في التعبير عن تقديره للقيمة التمثيلية لهذه الحكومة وذلك حينما نص على "أنها تمثل بكل أمانة مطامح الجزائريين في الاستقلال ورغبتهم في التخلص من النير الاستعماري"¹².

وفي العدد الرابع والخامس من سنة 1960م نقرأ مقالين بتوقيع الأستاذ صاحب الإمضاء، يحمل الأول عنوان، القضية الجزائرية في رأي خمسة من رجال العلم والسياسة بفرنسا، يستهله بطرح سؤال: هل للجزائريين الحق في متابعة كفاحهم الوطني؟ ويقدم للقراء كتاباً ظهر منذ سنة تحت عنوان "القضية الجزائرية"، شارك في تأليفه خمسة من أشهر رجال العلم والسياسة في فرنسا، من بينهم ألفريد سوفي وشارل أندريه جوليان الذي يختم القول: "إذا كان للحكومة الفرنسية الذكاء الكافي والشجاعة اللازمة للاعتراف بالوضع الوطني الجزائري فإنه يسهل حينذاك الاتفاق على المراحل التي توصل إلى الاستقلال الذي لا مناص منه"¹³. وحمل المقال الثاني عنوان: "الغلاة الاستعماريون الفرنسيون ضد الجنرال دو كول"، ما يحلل من خلاله موقف غلاة الاستعمار وتشبثهم بفكرة الجزائر الفرنسية، مقابل مرونة الموقف الجزائري، ومما يجدر بالذكر أن موقف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وتصريح سيادة الرئيس فرحات عباس حول رغبة حكومته في التفاوض على أساس تقرير المصير، كان موقفاً إيجابياً حكيماً إذ أظهر للعالم أجمع أن نوايا الجنرال دو كول لا تكفي، وأن غلاة الاستعمار لا يكونون خطراً دائماً على الجزائر فقط، ولكن على فرنسا أيضاً، وبالتالي على جميع أقطار المغرب العربي¹⁴.

10 - دعوة الحق ع 1 أكتوبر 1959 ص 68.

11 - نفسه، ص 71.

12 - دعوة الحق ع 1 أكتوبر 1959 ص 70.

13 - دعوة الحق ع 4 يناير 1960 ص 62.

14 - دعوة الحق ع 5 فبراير 1960 ص 86.

ونقرأ في العدد الأول من سنة 1959م مقالا للأستاذ محمد الغربي بعنوان "اجتماع مجلس جامعة الدول العربية بالدار البيضاء أهميته ومغزاه ونتائجه"، نكتطف منه ما يتعلق بموضوع الجزائر: وفيما كان دو كول يوالي اجتماعاته وتخطيط برامج لمحق الجزائريين ومحاولاته إشراك الدول الغربية بشكل غير مباشر في حرب الجزائر كانت شعوب العالم توالي مواكبتها لقافلة التحرير الجزائرية، فمن بكين إلى منروfia ومن هافانا إلى جاكارتا لا يسمع الإنسان إلا شعارات الحرية للجزائر.

ومن الناحية العسكرية فقد تطورت الحرب الجزائرية بعد تطبيق برنامج الجنرال شال واستعماله الأسلحة المحرمة، وتوسيع نطاق مراكز التجميع حتى أصبحت تضم مليوني جزائري معرضين للجوع والمرض¹⁵.

وواصلت مجلة دعوة الحق مواكبتها لتطورات القضية الجزائرية من خلال الباب الدائم: "الجزائر في طريق الاستقلال"، وأشرف على هذا الباب طيلة ثمانية أعداد، الأستاذ أحمد مراد، وهو كاتب جزائري مقيم بالمغرب، تميز بأسلوب بليغ والتمكن من ناصية اللغة العربية وإلمام وتتبع لشؤون الجزائر والمغرب العربي.

وجاءت مقالات الأستاذ مراد التي غطت ثلاثين صفحة على الشكل التالي:

1- على هامش الذكرى الخامسة للثورة الجزائرية ذكرى الانبعاث الجزائري
ع. 2 نونبر 1959، من ص. 66 إلى ص. 68.

2- ذكريات في حقل الثورة

ع. 7 أبريل 1960، من ص. 65 إلى ص. 68.

3- في أرض الجهاد والاستشهاد قوميتنا المحاربة

ع. 8 ماي 1960، من ص. 69 إلى ص. 72.

4- مقاومة إنسانية

ع. 9 يونيو 1960.

5- ذكرى احتلال الجزائر

ع. 10 يوليوز 1960، ص. 101-106.

6- المأساة الجزائرية أمام الضمير العالمي

ع. 1 أكتوبر 1960.

15 - دعوة الحق ع 1 أكتوبر 1959 ص 47.

7- ذكرياتنا القومية

ع. 2 نونبر 1960.

8- على هامش الكفاح الجزائري من أدبائنا

ع. 8 ماي 1960.

ولصعوبة تتبع كل ما ورد في هذه المقالات نقدم مثالين للتعرف على أسلوب الكاتب. ففي مقال "مقاومة إنسانية" نقرأ: "وبديهي أن المقاومة تنبعث من شدة البغي ومواصلة العدوان، ويخلقها الإمعان في فرض السيطرة والاستبداد، والإسراف في الاستغلال والاستحواذ، وهذا ما حدا بشعبنا الجريح في عزته وكرامته، أن يرفع لواء المقاومة المسلحة بعد أن أعيته جميع الوسائل السلمية... والتاريخ العادل سوف لا يهمل تسجيل ما ترتكبه إحدى الدول الكبار من أعمال شنيعة... إذ أدت بها الحماقة إلى أن تنتهك قوانين الحرب وتخرق تعهدات الأمم والشعوب فتقذف المجاهدين بقنابل النابالم المحرقة"¹⁶.

ويبرز المقال الثاني: "ذكرياتنا القومية" مدى التحام الشعبين المغربي والجزائري في الكفاح المشترك ضد المستعمر الفرنسي، وإشادة بتضحيات وجهود محمد الخامس في دعم ومساندة الحركات التحررية في ربوع المغرب العربي.

"أشرقت الشمس في الأفق في صبيحة عيد العرش المغربي، مع شروق بسمات الفرحة والبهجة على شفاه كل فرد مغربي، وفي قلب كل عربي من أبناء هذا المغرب العربي... مهرجانات تقام في يوم التضامن وأحاديث تذاق من أجل التضامن مع شعب عربي أبي، وشعبنا في المغرب ينهض عن بكرة أبيه ليساهم في ذكرى ثورة التحرير الجزائرية أسوة بملكه الهمام وقائده المقدام"¹⁷. ويوم أقدمت فرنسا على اقتراح فعلتها النكراء ضد العرش المغربي، اهتزت الجزائر للحادث من أقصاها إلى أقصاها، احتجاجا واستنكارا وامتنع المواطنون عن ذبح الأضاحي تضامنا مع الشقيق في محنته، وظلت ذكرى العدوان على العرش المغربي مثار حزن ومبعث أسى كلما آن أوانها وعاد يومها"¹⁸. وبالإضافة إلى الأوضاع السياسية والعسكرية التي غطتها أعداد مجلة دعوة الحق، حفلت كذلك بمواضيع فكرية

16 - دعوة الحق ع 9 يونيو 1960 ص 85.

17 - دعوة الحق ع 2 نونبر 1960 ص 85.

18 - نفسه، ص 86.

وأدبية، كمقال "الأدب الفرنسي ومشكلة الجزائر" للأستاذ محمد برادة¹⁹، ومقال "لمحات حول الفكر الجزائري المعاصر" للأستاذ جمال البغدادي القادري²⁰.

كما فتحت مجلة دعوة الحق صفحاتها للعديد من الكتاب الجزائريين. حيث نجد مقالا للأستاذ حنفي بنعيسى: "علم الاجتماع بين ابن خلدون وأوغست كونت"²¹.

ومقال "المعرفة والحدس عند برجسون" لعبد المجيد مزيان²².

و"دراسة نظرية في الإعجاز" للأستاذ مالك بن نبي²³.

- خطب محمد الخامس المساندة لكفاح الجزائر من خلال مجلة دعوة الحق.

بعد حصول المغرب على الاستقلال، ظلت قضية الجزائر حاضرة في كل خطب المغفور له الملك محمد الخامس طيب الله ثراه على الصعيد الوطني، كخطب عيد العرش، وعلى الصعيد الدولي في المؤتمرات واللقاءات والزيارات الخارجية. وأوردت مجلة دعوة الحق العديد من خطبه التي تندد بتعننت السياسة الاستعمارية الفرنسية، والدعوة إلى منح الشعب الجزائري حريته واستقلاله، كما نبه مرارا على أن استمرار الحرب في الجزائر يعرض السلم العالمي للخطر.

ونعثر في مجلة دعوة الحق على وثيقة ذات خصوصية وهي خطبة محمد الخامس على منبر المسجد الأعظم بتطوان يدعو فيها للجزائر: "اللهم أنزل سكينتك على الجزائر، وتداركها بلطفك الباطن والظاهر، وكن وليا لها ولسائر المستضعفين، وانشر سلامك عليها وعلى أهل الأرض أجمعين"²⁴.

وهكذا توالى خطب العرش، وتوالى معها التأكيد على الدعم القوي للمغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، لاستقلال الجزائر. وفيما يلي مقتطفات من خطبه الشاهدة على ذلك:

- خطاب العرش لسنة 1957م.

"ونريد أن نؤكد هنا موقفنا من قضية الجزائر الشقيقة التي هي بعض من كل هذا المغرب العربي، فنحن نؤيد دائما رغبتها في الحرية والاستقلال، ونعد هذا التأييد مما يدخل في التزاماتنا نحو

19 - دعوة الحق ع. 1 أكتوبر 1960 ص 66.

20 - دعوة الحق ع. 9-10 يوليوز 1961 ص 46.

21 - دعوة الحق ع. 3 دجنبر 1961 ص 38.

22 - دعوة الحق ع. 10 يوليوز 1959.

23 - دعوة الحق ع. 7 أبريل 1962.

24 - دعوة الحق ع. 4-5 نونبر 1957 ص 3.

ميثاق الأمم المتحدة، والمبادئ المتعلقة بحقوق الإنسان وحرية الشعوب في تقرير مصيرها، ونكرر رجاءنا في أن يهتدي المسؤولون إلى حل عادل سلمي يحقن الدماء ويضمن المصالح العليا للطرفين وبذلك تستعيد أقطار الشمال الإفريقي الثلاثة أمنها واطمئنانها"²⁵.

- خطاب العرش لسنة 1958م.

"ولم نفتأ نتضامن التضامن التام مع الشعب الجزائري ونعمل لتحقيق استقلاله، ذلك الاستقلال الذي هو عنصر أساسي لتشييد وحدة المغرب العربي. ولما تألفت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كنا بالطبع من السابقين إلى الاعتراف بها. وإننا نحیی في هذه المناسبة شجاعة الشعب الجزائري وإقدامه ونجدد له كامل التضامن والتأييد"²⁶.

- خطاب العرش لسنة 1959م.

"وواصلنا الجهود التي ما فتئنا نبذلها لتشييد وحدة المغرب العربي... وإننا نسجل بارتياح كبير اعتراف فرنسا على لسان رئيس جمهوريتها بحق الجزائريين في تقرير مصيرهم، الذي نأمل أن يدخل حيز التنفيذ ليتسنى للشعب الجزائري أن يستعيد سيادته ويقوم بالدور الجدير به"²⁷.

- خطاب العرش لسنة 1960م.

"من قضايانا الكبرى قضية استقلال الجزائر التي دخلت حربها التحريرية في سنتها السابعة، لقد كنا ننتظر مثل باقي شعوب العالم أن تقف الحرب في هذه السنة بالاعتراف للشعب الجزائري المكافح بحقه في الحرية والاستقلال، ولكن عظمة الخيبة عندما رأينا الحرب تستمر رغم ما أبدته الحكومة الجزائرية من حسن استعداد لحل المشكل عن طريق المفاوضات، وأن هذا لا يعرض الشعب الجزائري للإبادة فحسب، ولكن يخشى أيضا أن تتسع هذه الحرب وتنتشر، وقد أصبح هذا الخطر أمرا واقعا بالنسبة لأقطار المغرب العربي، فلم يبق إلا أن تتدخل الأمم المتحدة في المشكلة قصد إيقاف الحرب وتمكين الشعب الجزائري من التمتع باستقلاله وسيادته"²⁸.

- خطاب افتتاح مؤتمر القمة بالدار البيضاء

"وإننا نغتنم فرصة هذا المؤتمر، وحضور أخيها فخامة الرئيس فرحات عباس رئيس الحكومة الجزائرية لنوجه في شخصه تحية المؤتمر إلى الأبطال المكافحين في سهول الجزائر وجبالها وصحرائها،

25 - دعوة الحق ع 6 دجنبر 1957 ص 5.

26 - دعوة الحق ع 3 دجنبر 1958 ص 5.

27 - دعوة الحق ع 3 دجنبر 1959 ص 6.

28 - دعوة الحق ع 2 نونبر 1960 ص 6.

ونؤكد لهم وقوفنا بجانبهم موقف التأييد والمؤازرة لأن قضيتهم قضيتنا، ونضالهم نضالنا، مطالبين بمنح الجزائر حقها في الحرية والاستقلال بدون قيد ولا شرط"²⁹.

- ديوان دعوة الحق

من الأبواب الثابتة والدائمة في مجلة دعوة الحق "ديوان دعوة الحق"، مخصص للقصائد والمقطوعات الشعرية. وقد حفل هذا الباب بالعديد من القصائد الشعرية المشيدة ببطولات الثورة الجزائرية. ولا شك أن ما كان يحدث بالجزائر أثناء ثورتها وصلت أصداءه إلى كل أرجاء الوطن العربي، وطالما تغنى الشعراء المغاربة بالثورة الجزائرية من خلال تتبعهم لكل ما كان يجري إبان هذه الثورة... وهكذا بلغت ثورة الجزائر أبعد أغوار الوجدان المغربي، فتعاطف معها الناس من الأعماق، مما ألهم غير قليل من الشعراء أروع قصائدهم على الإطلاق³⁰.

فأشعار ومقالات مجلة دعوة الحق شكلت نموذجا للالتزام بقضايا الأمة منذ الخمسينات، وكان الشعر أداة فعالة من أدوات المقاومة، وقد انبرى الشعراء المغاربة والعرب من خلال مجلة دعوة الحق للتغني بأعجاد الثورة والإشادة بأبطالها وشهادتها، وإذا ما رام الباحث جمع كل ما ورد بالمجلة من أشعار حول ثورة الجزائر سيجد نفسه أمام ديوان شعري ضخم.

سنكتفي بإيراد أمثلة عن الشعراء الذين تجاوزت أشعارهم مع كفاح الشعب الجزائري.

- أنشودة للبلد الأخضر، للشاعر مصطفى المعداوي³¹.

- نصف ساعة، للشاعر محمد الطنجاوي³².

- عميروش في موكب الخلود، للشاعر إدريس الكتاني³³.

- مجاهدة، للشاعر عبد الله السعداتي³⁴.

- جميلة، للشاعر ممتاز السيد سليمان³⁵.

29 - دعوة الحق ع 3 دجنبر 1960 ص 8.

30 - منير البعكري أبعاد وتجليات الثورة الجزائرية في الشعر المغربي الحديث.

31 - دعوة الحق ع 4 يناير 1959 ص 65.

32 - دعوة الحق ع 2 نونبر 1958 ص 41.

33 - دعوة الحق ع 8 ماي 1959 ص 61.

34 - دعوة الحق ع 10 يوليوز 1959 ص 132.

35 - دعوة الحق ع 8 ماي 1959 ص 72.

- محمد الحلوي: الذي عانق في شعره القضايا القومية والعربية كفلسطين والثورة الجزائرية نشر أغلب شعره في مجلة دعوة الحق، من أسبق الشعراء المغاربة الذين تجاوبوا مع ثورة الجزائر، من ذلك قصيدته الشهيرة "صرخة الجزائر" التي تجاوزت 60 بيتاً³⁶.

- صالح خرفي: الذي يعد من أكثر شعراء الجزائر الذين نشروا أشعارهم في مجلة دعوة الحق، وقد أمضى عددا من قصائده بالمجلة بأبي عبد الله صالح الجزائري، نورد له قصيدتين متميزتين: يوم الجزائر³⁷، وأنتم في غد ضيف الجزائر³⁸.

- مفدي زكرياء: لكل ثورة أو حركة تحرير شعراؤها الذين يمثلون ضمير شعبها وينتصرون في قصائدهم وأناشيدهم للثورة فيمجدون رجالها ويخلدون شهداءها³⁹ فلا غرابة إذن أن يحمل مفدي زكريا لقب شاعر الثورة الجزائرية، بل عد أبرز شاعر عرفته أقطار شمال إفريقيا في ثورتها من أجل الاستقلال في العصر الحديث، فقد أرخ بشعره الغزير للقضية الوطنية الجزائرية من خلال ديوانه "اللهب المقدس" وللقضية التونسية بديوانه "تحت ظلال الزيتون" وللقضية المغربية بديوانه "من وحي الأطلس" كما حملت كثير من قصائده حماسة قومية واضحة وتطلعا إلى وطن عربي موحد⁴⁰.

- وقد خص مفدي زكريا مجلة دعوة الحق بعدد وافر من قصائده التي انفردت المجلة بنشرها، كما أوضح ذلك الحاج بكير ناشر ديوان "أمجادنا تتكلم"، قمنا برصد شعره غير المنشور فيما توفر من وثائق خطية وصحف مغاربية ومشرقة... وما أفاد به سعادة سفير الجزائر بالمغرب بوعلام بالسايح مكتبة مفدي زكريا من قصائد نشرها الشاعر في مجلة دعوة الحق المغربية⁴¹ وكما سبق الذكر فقد خص مفدي زكريا مجلة دعوة الحق بالكثير من قصائده منها:

- فلا عز حتى تستقل الجزائر⁴².

- هنيئا بني أُمي⁴³.

36 - دعوة الحق ع 11 ماي 1958 ص 20.

37 - دعوة الحق ع 9 يونيو 1959 ص 63.

38 - دعوة الحق ع 2 نونبر 1959 ص 78.

39 - حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية ط 1 القاهرة 1997 ص 21.

40 - يحيى بن بهون حاج محمد: النزعة الوجدانية في شعر مفدي زكريا مجلة أفكار 28 حزيران 2012 ص 11.

41 - مصطفى بن الحاج بكير: أمجادنا تتكلم مؤسسة مفدي زكرياء الجزائر 2003 ص 7.

42 - دعوة الحق ع 3 دجنبر 1961 ص 66.

43 - دعوة الحق ع 7 أبريل 1962 ص 69.

- رسالة الشعر في الدنيا مقدسة⁴⁴.
- آمنت بالشعب فردا لا شريك له⁴⁵.
- ثقة الشعب ذمة فارقبوها⁴⁶.
- ونشرت المجلة قصيدة بعنوان استقلال الجزائر للشاعر المصري أحمد محمد صقر⁴⁷.
- وملحمة الجزائر للشاعر المدني الحمراوي⁴⁸.
- لقد ألهمت ثورة الجزائر العديد من شعراء الوطن العربي، حيث عبر الشاعر السوري سليمان العيسى عن أحداثها بسبع وثلاثين قصيدة. وقد جمع الباحث عثمان سعدي الشعر الذي قيل في الثورة الجزائرية في العراق وسوريا، فكانت الحصيلة 454 قصيدة.
- وكما هو معروف فإن الشعر المغربي الذي قيل في ثورة الجزائر لا يقل بأي حال عما ذكره الأستاذ عثمان سعدي، وإنما هو بحاجة إلى من يجمع شتاته.
- ولا نعدو الحقيقة في الختام إذا قلنا: إن مجلة دعوة الحق تعد مرجعا هاما لا غنى عنه لمن يتصدى لدراسة تاريخ الثورة الجزائرية، لما تميزت به من مواكبة دقيقة للأحداث وما تفردت به من معلومات ومعطيات وأشعار وغيرها.

44 - دعوة الحق ع 2 نونبر 1961 ص 64.

45 - دعوة الحق ع 3 دجنبر 1962 ص 51.

46 - دعوة الحق ع 6 مارس 1962 ص 72.

47 - دعوة الحق ع 8-9 ماي يونيو 1962 ص 78.

48 - دعوة الحق ع 5 ماي يونيو 1962 ص 82.

ثورة الملك والشعب:

ثوابت الانطلاق ومقومات الاستمرار

د. رشيد لبحيح
باحث، فاس

تعتبر "ثورة الملك والشعب" حدثا تاريخيا عظيما في تاريخ المغرب الحديث، لما تشتمل عليه من تضحيات جسام تجلت في الكفاح الوطني الهادف إلى تحرير الوطن من الاستعمار بجميع الأساليب والوسائل الممكنة.

إن أهم ما يميز هذه الثورة أنها استندت في قيامها على الوحدة الوطنية، وتماسك المجتمع وتلاحم مختلف مكوناته الوطنية مع العرش، بل إنها ما اندلعت وعرفت أوجها، إلا بعد أن أعطى الملك المثال وقدم الدليل على التضحية والصمود في الدفاع عن استقلال الوطن، ولذلك سميت: "ثورة الملك والشعب".

ونحن نحتفل بهذه الذكرى الغالية، ذكرى "ثورة الملك والشعب"، وما لاقته من نجاحات عظيمة، وما تشهده من تجدد متواصل، نرى أن نقف على الثوابت التي قامت عليها وشكلت مرتكزات لنجاحها وانتصارها، ونبين مقومات استمرارها وتجديدها.

- ثوابت الانطلاق:

يمكن إجمالها في ثابتين رئيسيين هما: النضال من أجل استرجاع الاستقلال، والتمسك بالشرعية القائمة على أساس البيعة:

أولا: النضال من أجل تحقيق الاستقلال:

وذلك انطلاقا من ثبات وأصالة الخريطة الجغرافية للمغرب، وقد عرف هذا النضال أوجها بقيادة الملك الراحل محمد الخامس، طيب الله ثراه، وتلاحم بينه وبين الشعب، حين مست سيادة المغرب بفرض الحماية عليه.

إن اندلاع ثورة الملك والشعب محطة تاريخية حاسمة وفاصلة بين فترة الحماية وعهد الاستقلال، استهدفت تحقيق حلم الأمة المتمثل في رجوع بطل التحرير ورمز المقاومة المغفور له محمد الخامس، طيب الله ثراه، حاملا معه لواء الحرية والاستقلال، معلنا عن الانتقال من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر من أجل بناء المغرب الجديد.

ومن أبرز المحطات التاريخية التي ميزت مسار الكفاح الوطني، الزيارة التاريخية التي قام بها بطل التحرير إلى طنجة يوم 9 أبريل 1947م تأكيداً على تشبث المغرب، ملكا وشعبا، بحرية الوطن ووحدته الترابية وتمسكه بمقوماته وهويته.

وقد كان لهذه الزيارة الأثر العميق على علاقة الإقامة العامة بالقصر الملكي، حيث اشتد الصراع، خاصة وأن المغفور له محمد الخامس لم يخضع لضغوط سلطات الحماية المتمثلة أساسا في مناهضة الحركة الوطنية، والوقوف ضد مصلحة الوطن. فكانت مواقفه الراضية لكل مساومة سببا في إقدام سلطات الإستعمار على مطالبته بالتنازل عن العرش، ففضل، طيب الله ثراه، النفي على أن يرضخ لإرادة الاحتلال مصرحا، بكل ما لديه من إيمان بعدالة القضية المغربية، بأنه الملك الشرعي للأمة، وأنه لن يخون الأمانة التي ألقاها شعبه الوفي على عاتقه، والمتمثلة في كونه سلطان الأمة الشرعي ورمز سيادتها.

وبسبب مواقفه الوطنية السامية، أقدمت سلطات الاحتلال على نفيه ورفيقه في الكفاح، المغفور له الملك الحسن الثاني - أكرم الله مثواه - والأسرة الملكية الشريفة يوم 20 غشت 1953م إلى جزيرة كورسيكا ومنها إلى مدغشقر.

وقد كان من تداعيات ما أقدمت عليه سلطات الاستعمار أن انتفض الشعب المغربي وأعلن عن انطلاق ثورته في وجه الاحتلال الأجنبي، التي ارتكزت في قيامها على أمرين:

أحدهما: تماسك المجتمع وانسجام مختلف مكوناته الوطنية، في تلاحم وثيق مع العرش، وقد بدا هذا الانسجام واضحا من خلال الوعي الشعبي الذي عبرت عنه المقاومة وجيش التحرير باعتبارها المجسدة لثورة الملك والشعب، فلم تكن مقاومة جهوية أو إقليمية، وإنما كانت وطنية تمثل المغرب كله بمختلف مناطقه. ولعل هذا من أهم عوامل نجاحها وفعاليتها، فقد حرصت قيادة المقاومة في هذه الفترة على أن يكون لها خلايا وفروع في جميع مناطق المملكة.

وثانيهما: إدراك المغفور له محمد الخامس أن تحرير المغرب من نير الاستعمار، لا يمكن أن يتحقق إلا بإصلاح فكري ينطلق من التمسك بالعقيدة، على أساس من الكتاب والسنة. وإيمانا منه

بأن التعليم هو السبيل الوحيد للتصحيح والإصلاح، فقد أولى عنايته له في مختلف مراحلها وجميع مؤسساته؛ حيث طور منها ما كان يحتاج إلى تطوير، وأحدث فيها ما كانت المرحلة في حاجة إليه.

من هنا عني بجامعة القرويين وما ينتمي إليها من معاهد علمية، واهتم بالكتاتيب القرآنية التي حول الكثير منها إلى مدارس عربية حرة، لم تلبث أن غدت بعضها مؤسسات ثانوية، كما اهتم بتعليم الفتيات، وكان يراعاه بنفسه ويشرف عليه بطريقة مباشرة.

وقد تجلت عناية الملك المصلح بهذا المجال كذلك في الحث على تأليف الكتب المدرسية وتكوين لجان له، وكذا في التبرع لإقامة المنشآت التعليمية، والتشجيع عليه، وفي وضع الحجر الأساس لها، وتدشينها، وحضور حفلاتها السنوية، وإلقاء الخطب التوجيهية بها.

كما وجه أول بعثة تعليمية للدراسة العليا بفرنسا، وكان ذلك سنة خمس وأربعين وتسعمائة وألف ميلادية، وظل يرعى هذه البعثة إلى أن عادت لتكون في خدمة الوطن...¹.

ثانيا: التمسك بالشرعية القائمة على أساس البيعة:

لما أقدمت سلطات الاحتلال الأجنبي على عزل الحاكم الشرعي للمغرب الملك محمد الخامس رحمه الله، وجردته من صلاحياته وحقوقه السياسية، بسبب انحيازه إلى الوطنيين واختياره طريق النضال من أجل الحرية والاستقلال، الشيء الذي عرضه لمضايقات كثيرة ومساومات خطيرة انتهت بنفيه إلى خارج أرض الوطن، عمدت إلى تنصيب محمد بن عرفة، وأخذت له البيعة بالضغط والقهر والإكراه، وكانت تسعى من وراء ذلك إلى تفكيك الوحدة الوطنية للمغرب لتكريس هيمنتها.

ووعيا من المغاربة بضرورة الالتفاف حول شرعية السلطان محمد الخامس، طيب الله ثراه، باعتباره رمزا للوحدة الوطنية، فقد رفضوا "بيعة" ابن عرفة، وفجروا ثورة كادت تؤدي بحياته وغيره من رموز الاستعمار وأعوانه.

لقد أثبتت حادثة النفي أن التجاوب كان عميقاً بين الملك والشعب، وهو تجاوب تجاوز كل المهازل التي توسل الاستعمار بها لإضفاء الشرعية على مؤامراته.

إن وعي المغاربة بضرورة الوفاء ببيعة الملك الشرعي محمد الخامس رحمه الله، نابع من إدراكهم لمبادئ الإسلام في السياسة الشرعية ومنها الإجماع القائم على وجوب القيام بمقتضيات البيعة

1 - انظر ما كتبه عباس الجراري في "ثورة الملك والشعب: أسباب الإجماع وضرورة استمراره" عرض قدم للندوة العالمية التي نظمتها أكاديمية المملكة المغربية في الرباط، بمناسبة الذكرى الخمسين لثورة الملك والشعب من 22 إلى 25 جمادى الثانية 1424هـ الموافق 24-21 غشت 2003م.

الشرعية، ومنها الوقوف إلى جانب السلطان الشرعي ضد الاحتلال الأجنبي، وقد شكل هذا الوعي الدافع الأكبر لالتفاف الشعب المغربي الوفي واجتماع كلمته حول ملكه وعرشه العلوي المجيد... وكان له الأثر البالغ في نجاح تلك الثورة وبلوغ هدفها المنشود وهو عودة الملك من منفاه وتحقيق الاستقلال.

وباعتبار البيعة من أهم الأسس التي تقوم عليها شرعية الإمامة فقد نبه صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله منذ اعتلائه عرش أسلافه المنعمين على أنها ميثاق مستمر يجمع بينه وبين شعبه، وذلك في الخطاب السامي الذي وجهه إلى الشعب بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب، والذي جاء فيه: "وإذا كان جلالة الملك الحسن الثاني تغمدته الله بواسع رحمته قد رحل إلى جوار ربه، فإننا نحن محمدا السادس قد خلفناه في خدمتك - شعبي العزيز - وخدمة المغرب، وسنبقى على النهج الحسنيني سائرين تمسكا ببيعة الإمامة الشرعية التي تطوق عنقنا وعنقك، موصولة بما سبقها على امتداد أزيد من اثني عشر قرنا، موثقة السند بكتاب الله وسنة رسوله الكريم، ومشدودة العرى إلى الدستور المغربي الذي ينص على أن الملك أمير المؤمنين، والممثل الأسمى للأمة، ورمز وحدتها"².

والواقع أن المغفور له محمدا الخامس كان رمز الثورة بمفهومها الشامل، فقيادته لثورة الشعب المغربي لم تكن فقط لطرد الاستعمار، وإنما كانت من أجل بناء المغرب في إطار تحقيق تنمية شاملة، وهذا يتجلى في قوله المشهورة عند عودته، حيث قال: "إنني عدت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"، ومعنى الجهاد الأكبر كل ما له علاقة بالتنمية والإصلاح الهادفين للنهوض بالوطن على جميع المستويات، وتلك هي مقومات استمرار الثورة.

- مقومات استمرار ثورة الملك والشعب:

إن ثورة الملك والشعب ليست حدثا تاريخيا فحسب، بل هي ثورة مستمرة متجددة بتجدد الأجيال، ترمز ذكراها إلى استلهام معاني التضحية التي قدمها الملك والشعب لتحقيق الحرية والاستقلال، انطلاقا من التشبث بثوابت الوطن ومقدساته.

وما فتئ جلالة الملك نصره الله يؤكد هذا المعنى في خطبه السامية بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب من كل سنة.

2 - مجلة دعوة الحق العدد 346.

ففي خطابه السامي بمناسبة الذكرى السابعة والخمسين لثورة الملك والشعب يقول جلالة الملك أعزه الله: "وعندما نخلد هذه الملحمة المجيدة، فليس لكونها حدثاً بطولياً مضى وانقضى، وإنما باعتبارها ثورة متواصلة، لذلك ما فتئنا، منذ اعتلائنا العرش، نضفي عليها روحاً متجددة، ونستلهم منها قيم الغيرة الوطنية، والتضحية، والصمود، لنصنع تاريخاً حديثاً، يليق بماضينا العريق، ويفتح آفاقاً مستقبلية واعدة بتحقيق غاياتها المثلى، وذلك من خلال إطلاق مبادرات جريئة، تشكل تحولا حاسماً في تاريخنا المعاصر".

وفي الخطاب السامي بمناسبة الذكرى الستين لثورة الملك والشعب يقول جلالة الملك نصره الله: "وإذا كانت فئات واسعة من شعبنا الوفي، لم تعاصر هذه الثورة ضد الاستعمار، فإنها والله الحمد، تعيش ثورة جديدة بقيادتنا، في مجالات التنمية البشرية، والتقدم الاقتصادي والاجتماعي، والمواطنة الكريمة، بنفس روح الوطنية الصادقة، والتلاحم الوثيق بين العرش والشعب. وهي ثورة متواصلة، تتطلب التعبئة الجماعية، والانخراط القوي في أورشها التنموية، لرفع التحديات الحالية والمستقبلية، وتحقيق التطلعات المشروعة لمواطنينا".

إن المتتبع للخطب الملكية السامية في ذكرى ثورة الملك والشعب من كل عام، يجدها تحمل في ثناياها الأسس والمقومات التي وضعها صاحب الجلالة لاستمرار الثورة ومواصلتها على كافة المستويات وفي كل المجالات، ومن بين تلك الأسس والمقومات:

■ إصلاح التعليم:

يأتي إصلاح التعليم والاهتمام بالمنظومة التربوية في صدارة الإصلاحات التي يوليها جلالة الملك حفظه الله، فائق عنايته، وعيا منه بأن انخراط الشباب في مسيرة التنمية والإصلاح لن يتم بدون إصلاح النظام التربوي والتعليمي، وأكد جلالته في خطابه السامي بمناسبة الذكرى التاسعة والخمسين لثورة الملك والشعب "أن انخراط الشباب في هذا الخيار الاستراتيجي، يظل رهينا بمدى تأهيله وإعداده للمستقبل، وهذا ما يحيلنا على المنظومة التربوية، وقدرتها على تكوين الأجيال الصاعدة، وإعدادها للاندماج الكامل في المسار التنموي الديمقراطي للمجتمع".

وأضاف جلالته في الخطاب ذاته أنه "يتعين الانكباب الجاد على هذه المنظومة، التي نضعها في صدارة الأسبقيات الوطنية. هذه المنظومة التي تسائلنا اليوم، إذ لا ينبغي أن تضمن فقط حق الولوج العادل والمنصف، القائم على المساواة، إلى المدرسة والجامعة لجميع أبنائنا. وإنما يتعين أن نخوّلهم أيضا الحق في الاستفادة من تعليم موفور الجدوى والجاذبية، وملائم للحياة التي تنتظرهم.

كما يجب أن تهدف إلى تمكين الشباب من تطوير ملكاتهم، واستثمار طاقاتهم الإبداعية، وتنمية شخصيتهم للنهوض بواجبات المواطنة، في مناخ من الكرامة وتكافؤ الفرص، والمساهمة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وذلك هو التحدي الأكبر الذي تطرحه الظرفية الراهنة".

ولبلوغ هذه الغاية، يجب علينا العمل على تفعيل ما تمت التوصية به خلال السنوات الأخيرة، وتجسيد ما توخاه الدستور الجديد بخصوص التعليم العصري والجيد".

ويؤكد جلالة الملك في الخطاب نفسه أنه يجب الانتقال من منطق تربوي يركز على المدرس وأدائه، مقتصرًا على تلقين المعارف للمتعلمين إلى منطق آخر يقوم على تفاعل هؤلاء المتعلمين وتنمية قدراتهم الذاتية، وإتاحة الفرص أمامهم للابتكار واكتساب المهارات والتشجيع بقيم التعايش مع الآخرين، في التزام بقيم الحرية والمساواة واحترام التنوع والاختلاف.

إن الأمر لا يتعلق إذن، في سياق الإصلاح المنشود، بتغيير البرامج، أو إضافة مواد أو حذف أخرى، وإنما المطلوب هو التغيير الذي يمس نسق التكوين وأهدافه، وذلك بإضفاء دلالات جديدة على عمل المدرس لقيامه برسالته النبيلة، فضلًا عن تحويل المدرسة من فضاء يعتمد المنطق القائم أساسًا على شحن الذاكرة ومراكمة المعارف، إلى منطق يتوخى صقل الحس النقدي، وتفعيل الذكاء، للانخراط في مجتمع المعرفة والتواصل.

ودعا جلالة الملك محمد السادس نصره الله الحكومة للعمل في هذا الاتجاه من أجل التركيز على النهوض بالمدرسة العمومية إلى جانب التعليم الخاص في إطار من التفاعل والتكامل، مؤكداً على أنه يتعين الإسراع في تفعيل مقتضيات الدستور بخصوص المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي في صيغته الجديدة، على أن تساهم هذه الهيئة في إنجاح هذا التحول الجوهرى والمصيرى الذى لا يتعلق بمصير الشباب فحسب بل بمصير المغرب بلداً وأمة.

وفي الذكرى الستين لثورة الملك والشعب تحدث جلالة الملك أعزه الله، بلغة واضحة ومباشرة وصريحة، عن قطاع التربية والتكوين وما يعترى منظومته من اختلالات، مقدما جلالته توجيهات سامية لتجاوزها.

ومن ضمن المشاكل والصعوبات التي يعاني منها قطاع التعليم "اعتماد بعض البرامج والمناهج التعليمية التي لا تتلاءم مع متطلبات سوق الشغل، فضلًا عن الاختلالات الناجمة عن تغيير لغة التدريس في المواد العلمية، من العربية في المستوى الابتدائي والثانوي، إلى بعض اللغات الأجنبية، في

التخصصات التقنية والتعليم العالي. وهو ما يقتضي تأهيل التلميذ أو الطالب، على المستوى اللغوي، لتسهيل متابعته للتكوين الذي يتلقاه".

وألح جلالة الملك أعزه الله على تشجيع المواطن المغربي على تعلم اللغات الأجنبية وإتقانها، إلى جانب اللغات الرسمية التي ينص عليها الدستور، لاستكمال تأهيله، وتمكينه من العمل في المهن الجديدة للمغرب، التي تعرف خصاصا كبيرا في اليد العاملة المؤهلة، كما أكد جلالته أنه "يتعين إيلاء المزيد من الدعم والتشجيع لقطاع التكوين المهني، ورد الاعتبار للحرف اليدوية والمهن التقنية، بمفهومها الشامل، والاعتزاز بممارستها وإتقانها.

وفي هذا الصدد ذكر جلالته بأهمية الميثاق الوطني للتربية والتكوين، الذي تم اعتماده في إطار مقاربة وطنية تشاركية واسعة، ودعا الحكومة إلى تنفيذ مقتضياته، وأكد جلالة الملك على أنه "لا ينبغي إقحام القطاع التربوي في الإطار السياسي المحض، ولا أن يخضع تدبيره للمزايدات أو الصراعات السياسية، بل يجب وضعه في إطاره الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، غايته تكوين وتأهيل الموارد البشرية، للاندماج في دينامية التنمية، وذلك من خلال اعتماد نظام تربوي ناجع".

وفي سياق التذكير بخطاب الذكرى التاسعة والخمسين لثورة الملك والشعب، الذي تضمن التوجهات العامة لإصلاح المنظومة التعليمية، والدعوة لتفعيل المقتضيات الدستورية بخصوص المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، دعا جلالة الملك الحكومة إلى الإسراع بإقرار النصوص القانونية المتعلقة بهذا المجلس.

■ النهوض بالاقتصاد:

يشكل النهوض بالاقتصاد أهم مرتكزات التنمية بمجالاتها المختلفة، وإيمانا من جلالة الملك بأهمية الاقتصاد في استمرار ثورة الملك والشعب، فقد خصص خطابه السامي في الذكرى الواحدة والستين لهذه الثورة المجيدة، للحديث عن الاقتصاد الوطني والتحديات التي تواجهه وسبل مواجهتها.

وأكبر التحديات تلك المتمثلة في اتساع الفوارق بين الطبقات الاجتماعية بوصفها مظاهر سلبية يتسم بها المسار التنموي لعدد من الدول الصاعدة، لذا فقد جدد جلالة الملك حرصه الدائم "على تلازم التنمية الاقتصادية مع النهوض بأوضاع المواطن المغربي".

وهنا نبه جلالته إلى التحدي الأكبر الذي تفرزه التنمية الاقتصادية غير المتكافئة، حين قال: "ذلك أننا لا نريد مغربا بسرعتين: أغنياء يستفيدون من ثمار النمو، ويزدادون غنى وفقراء خارج مسار التنمية، ويزدادون فقرا وحرمانا".

وفي هذا الإطار تندرج برامج المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، التي عبرت عدة دول عن رغبتها في الاستفادة من تجربتها، وكذا الجانب الاجتماعي للمخططات القطاعية، التي تعطي أهمية خاصة للتنمية المحلية والبشرية".

وتعتبر المبادرة الوطنية للتنمية البشرية التي أعطى انطلاقها صاحب الجلالة نصره الله في خطابه السامي بتاريخ 18 ماي 2005م رافعة أساسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية وتجربة رائدة يحتذى بها على الصعيد الإفريقي والعالمي في مجال التنمية البشرية.

فهي مشروع تنموي من أجل تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للفئات الفقيرة. وترتكز على ثلاث محاور أساسية:

- التصدي للعجز الاجتماعي بالأحياء الحضرية الفقيرة والجماعات القروية الأشد خصاضا.

- العمل على الاستجابة للحاجيات الضرورية للأشخاص في وضعية صعبة.

- تشجيع الأنشطة المدرة للدخل القار والمتيحة لفرص الشغل.

ويعتبر جلالته نصره الله أن العنصر البشري يظل الثروة الحقيقية للمغرب، وأحد المكونات الأساسية للرأسمال غير المادي، الذي دعا في خطاب العرش، لقياسه وتثمينه نظرا لمكانته في النهوض بكل الأوراش والإصلاحات، والانخراط في اقتصاد المعرفة، مبرزا أن ما حققه المغرب من تقدم، ليس وليد الصدفة، بل هو نتاج رؤية واضحة، واستراتيجيات مضبوطة، وجهود وتضحيات جميع المغاربة.

ومن التحديات التي تواجهها المقاولات، باعتبارها دعائم أساسية للاقتصاد، منافسة القطاع غير المنظم، وضعف النسيج الصناعي، الوضع الذي "يتطلب تطوير مجموعات ومقاولات قوية، تعزز مناعة الاقتصاد الوطني، سواء لمواجهة المنافسة الدولية، أو من أجل تطوير شراكات مع المقاولات الصغرى، للنهوض بالتنمية، على المستوى الوطني.

ويعد توفير الموارد البشرية المؤهلة أساس الرفع من التنافسية، للاستجابة لمتطلبات التنمية، وسوق الشغل، ومواكبة التطور والتنوع، الذي يعرفه الاقتصاد الوطني. وكما لا يخفى على أحد، فإن الحكامة الجيدة هي عماد نجاح أي إصلاح، والدعامة الأساسية لتحقيق أي استراتيجية لأهدافها".

وإذا كان قطاع الفلاحة يشكل أهم مرتكزات الاقتصاد الوطني، فقد نبه جلالته على ضرورة إصلاحه وتحديثه، أخذا بعين الاعتبار العدالة الجبائية، والأوضاع الهشة للفلاحين الصغار، جاء في الخطاب الملكي السامي للذكرى الخامسة والخمسين لثورة الملك والشعب: "وبنفس الحزم والعزم، فإننا حريصون على تفعيل الأمل، لإصلاح وتحديث الفلاحة، وتأهيلها للإنتاجية والتنافسية. ولهذه الغاية، فإنه يتعين إعطاء رؤية واضحة، لتحفيز وإنجاز الاستثمارات المنتجة. ومن هذا المنطلق، نوجه الحكومة لاتخاذ الإجراءات اللازمة، قصد تمديد العمل، بالنظام الجبائي الفلاحي الحالي، إلى نهاية سنة 2013.

وتوخيا للعدالة الجبائية والتضامن، ندعو الجهاز التنفيذي، لبلورة تصور متناسق، لنظام ضريبي ملائم ومتدرج، للقطاع الزراعي، يتم اعتماده والعمل به، ابتداء من القانون المالي لسنة 2014. وينبغي أن يراعي النظام الجبائي الفلاحي المنشود، الأوضاع الاجتماعية الهشة للفلاحين الصغار، وضرورة التضامن معهم، وذلك بمواصلة دعم الزراعات التقليدية البسيطة، والمعيشية المحدودة".

وأكد جلالته على أن المنجزات التي تم تحقيقها يجب أن تشكل حافزا قويا على مضاعفة الجهود والتعبئة الدائمة مبرزا أن السنوات القادمة ستكون حاسمة لتحسين المكاسب وتقويم الاختلالات وتحفيز النمو والاستثمار لأن النموذج التنموي المغربي بلغ مرحلة من النضج تجعله مؤهلا للدخول النهائي والمستحق ضمن الدول الصاعدة.

- إصلاح القضاء:

يحظى موضوع إصلاح القضاء بأهمية بالغة لدى أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله، وهي الأهمية التي جسدها خطب عديدة لجلالته في مناسبات كثيرة، وتم تضمينها في التصريح الحكومي، وتجسيدها في برنامج عمل الحكومة.

وهذه الأهمية نابعة بالضرورة من الوظيفة التي يقوم بها القضاء في الحماية القانونية الفعلية لحقوق الإنسان، وإحكام الرقابة على الالتزامات والمعاملات بين الناس في جميع المجالات، وإشاعة العدل بينهم.

ويعتبر الخطاب السامي لجلالة الملك بمناسبة الذكرى السادسة والخمسين لثورة الملك والشعب، والذي خصصه لإطلاق إصلاح شامل وعميق للقضاء، مدخلا لإصلاح القضاء ومنطلقا له.

يقول جلالة الملك: "لقد كان في طليعة أهداف ثورة الملك والشعب، استرجاع استقلال المغرب، وبناء دولة المؤسسات، القوية بسيادة القانون، وعدالة القضاء. ومواصلة للجهد الأكبر لتحقيق هذا الهدف الأسمى، فقد ارتأينا أن نخصص خطابنا، المخلد لذكرها السادسة والخمسين، لإطلاق الإصلاح الشامل والعميق للقضاء، تعزيزا لأوراش التحديث المؤسسي والتنموي، الذي نقوده، فمند تولينا أمانة قيادتكم، وضعنا في صلب انشغالاتنا إصلاح القضاء، بمنظور جديد، يشكل قطيعة مع التراكمات السلبية، للمقاربات الأحادية والجزئية.

وقد أخذنا بالمنهجية التشاورية والإدماجية، التي سلكنها، بنجاعة، في القضايا الوطنية الكبرى، لبلورة إصلاح جوهري، لا يقتصر على قطاع القضاء، وإنما يمتد، بعمقه وشموليته، لنظام العدالة".

وقد حدد جلالته الأهداف المنشودة من هذه المقاربة المتقدمة لإصلاح القضاء في توطيد الثقة والمصادقية في قضاء فعال ومنصف، باعتباره حصنا منيعا لدولة الحق، وعمادا للأمن القضائي، والحكمة الجيدة، ومحفزا للتنمية.

وتأهيل القضاء ليواكب التحولات الوطنية والدولية، ويستجيب لمتطلبات عدالة القرن الحادي والعشرين، والاستجابة لحاجة المواطنين الملحة في أن يلمسوا عن قرب، وفي الأمد المنظور، الأثر الإيجابي المباشر للإصلاح.

وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف الكبرى، وجه جلالة الملك حفظه الله الحكومة إلى بلورة مخطط متكامل ومضبوط، يجسد العمق الاستراتيجي للإصلاح، في محاور أساسية، تتمثل في ستة مجالات ذات أسبقية، وهي:

- تعزيز ضمانات استقلال القضاء، وذلك بإيلاء المجلس الأعلى للقضاء المكانة الجديرة به.
- تحديث المنظومة القانونية، لاسيما ما يتعلق منها بمجال الأعمال والاستثمار، وضمن شروط المحاكمة العادلة.

- تأهيل الهياكل القضائية والإدارية، وذلك بنهج حكمة جديدة للمصالح المركزية لوزارة العدل وللمحاكم، تعتمد اللاتمرکز، لتمكين المسؤولين القضائيين من الصلاحيات اللازمة، بما في ذلك تفعيل التفتيش الدوري والخاص، بكل حزم وتجرد، وكذا اعتماد خريطة وتنظيم قضائي عقلائي، مستجيب لمتطلبات الإصلاح.

- تأهيل الموارد البشرية، تكويننا وأداء وتقويما، مع العمل على تحسين الأوضاع المادية للقضاة وموظفي العدل، وإيلاء الاهتمام اللازم للجانب الاجتماعي، بتفعيل المؤسسة المحمدية، تجسيدا للرعاية الدائمة لأسرة القضاء.

- الرفع من النجاعة القضائية، للتصدي لما يعانيه المتقاضون، من هشاشة وتعقيد وبطء العدالة. وهذا ما يقتضي تبسيط وشفافية المساطر، والرفع من جودة الأحكام، والخدمات القضائية، وتسهيل ولوج المتقاضين إلى المحاكم، وتسريع وتيرة معالجة الملفات، وتنفيذ الأحكام.

- تخليق القضاء لتحسينه من الارتشاء واستغلال النفوذ، ليساهم بدوره في تخليق الحياة العامة، بالطرق القانونية.

خاتمة:

تلك - إذا - كانت أهم ثوابت ومقومات ثورة الملك والشعب، وقد تبين أنها ثورة متواصلة متجددة، بتجدد الأجيال المتمسكة بثوابتها، الواعية بمقوماتها وقيمها، والحاملة لمشعلها، كما تبين أن الإصلاحات الكبرى التي يقودها أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله كفيلة بأن تضيف عليها طابع التجدد والاستمرار.

التربية والاستعمار

المغرب نموذجا

د. عبد الحميد عشاق

مؤسسة دار الحديث الحسنية، الرباط

لقد كان الابتلاء بالاستعمار نتيجة طبيعية لانحلال أسس المقاومة الداخلية، ونتيجة حتمية لانطفاء وهج مدّ الأمة الحضاري بسبب فتور دوافع الحياة، وتوقف حركة العلوم والمعارف، وسقوط نظام القيم، وفقدان التوازن الاجتماعي، وهجر الفروض الكفائية، والميل إلى تسييج النفس، والغلوّ في حماية الذريعة، وسيطرة الفردانية، وفسوّ العصبيات... وغيرها من مظاهر الاختلال والضعف والوهن التي بلغت درجة من العمق والتراكم أصبحت معه البلاد مهيأة لاستقبال مختلف أشكال الاختراق.

وهكذا لم يكن الاستعمار سوى تعبير عن انهيار النسق الداخلي، الذي يعني جملة من المواصفات النفسية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي ظلت محيطة بالسياق الحضاري الإسلامي قرونا طويلة.

ولا شك أن انهيار أي مجتمع وانخراط نظامه من الداخل يعني استعدادة لتقبل صيغ جديدة من نظم الحياة والأفكار والأنماط، سيما إذا كانت هذه الأفكار والنظم ناتجة عن "حضارة" غازية تدين بعقيدة الإثنية المركزية (Ethno-concentrisme) في النظر إلى نفسها، وب عقلية النفي والإلغاء في النظر إلى ما سواها من النماذج الحضارية العالمية الأخرى!..

لقد بدأت المعالم والمؤشرات الأولى للتسلط الاستعماري الغربي الحديث، التي كونت المرحلة "الصليبية" أسسه العقديّة والنفسية والمفاهيمية، تتقوى منذ القرن السادس عشر الميلادي؛ فمع نهاية القرن الخامس عشر، وبداية القرن السادس عشر، كانت قد تشكلت في أوروبا، الدولة القومية على أيدي القوى الملكية الناهضة؛ حيث تم توحيد إنجلترا في ظل "هنري السابع" (1485-1509م)، كما تم توحيد فرنسا في ظل "لويس الحادي عشر" (1416-1483م). أما إسبانيا فقد تم توحيدها عام

1469م، في الوقت نفسه الذي كانت أساطيل أوروبا تخترق المحيطات وتبدأ بإرساء نظام قهرها العالمي في إفريقيا وأمريكا وآسيا، إذ قطع "دياز" رأس الرجاء الصالح عام (1487م)، ووصل "فاسكو دي غاما" إلى الهند عام (1489م)، واكتشف "كولومبو" أمريكا عام (1492)¹. ومنذ ذلك الحين، بدأت الدول الأوروبية الناشئة بتحطيم أبواب القارات، والسعي إلى نهب الثروة، والسيطرة على طرق التجارة الدولية وموارد المواد الخام، لتستأثر كل دولة على حدة بمنطقة نفوذ خارج حدودها، تكون تابعة ومسخرة "للمتروبول" الأوربي!

ومن هنا كانت السمة الغالبة على هذا التحرك الكاسح قيامه على العنف الدموي وارتكاب المجازر الجماعية، واستعمال أساليب الغصب والنهب والقرصنة ضد الثقافة والإنسان والأرض.

إنّ الباحث ليعجز عن وصف بشاعة أساليب الابتزاز والتدمير المكثف التي سحق بها الإنسان الأوربي مجتمعات بشرية عن بكرة أبيها، من أجل إحكام نظام سيطرته الدائمة عليها².

وهذا البحث ليس معنياً بتصفح أو عرض الأساليب العنيفة التي استخدمتها الدول الأوروبية ضد الحضارات المختلفة؛ فذلك موضوع طويل الذيل أفاضت في وصفه مصادر التاريخ ووثائقه. بيد أنّ الذي يعنينا هنا، هو تفهم الهدف العميق الذي شكّل وما يزال القاعدة الثابتة لبنية النموذج الاستعماري على المستوى العالمي، وهو الذي يمكن تحديده في تجميع عناصر القوة داخل الدولة القومية في الوقت نفسه الذي تتم فيه عملية تحطيم وتفكيك مراكز القوى في العالم أجمع، وتحويلها إلى

1 - انظر: إريك رول، تاريخ الفكر الاقتصادي، دار الكاتب العربي، القاهرة ط 1، 1968، ص: 58.

2 - انظر والتر رودني، أوروبا والتخلف في إفريقيا، ترجمة: أحمد القصير، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1988، ص: 274.

ويسجل المجاهد فرحات عباس في كتابه "ليل الاستعمار" حقائق فظيعة عن مآسي الاحتلال الفرنسي للجزائر تدع الحليم حيران! حيث إن جنرالات الاحتلال جعلوا من التقتيل والتخريب، وإحراق الزرع والضرع والنهب والسلب، دينا يتعبدون به. تأمل هذه الشهادات التي يشهدون بها على أنفسهم في مذكراتهم وتقاريرهم، شهادات لا تحتاج إلى تعليق! "وفي الغد نزلت في حميدة فأحرقت كل شيء في طريقي وخربت هذه القرية الفيحاء، إن أكّداً جثث أولئك الذين ماتوا في الليل من فرط البرد، كانت متراكمة متراسة، كانت كلها جثث بني مناصر المساكين الذين أحرقت قراهم ومنازلهم" (الجنرال سانت أورنو، رسائل سانت أورنو 1843)، "إذا اعتصم هؤلاء الأوباش الأهالي الجزائريون بكهوفهم، أفعل ما فعله كفينيك بقبيلة أصباح، عليك بخنقهم كالثعالب، وفي 18 يونيو نفذ الجنرال بليسي هذا الأمر الفظيع فوصف لنا جندي فرنسي شاهد بأم عينيه هذه المجزرة فقال: في منتصف الليل والقمر يسدي علينا أنواره كنا نرى كتية من الجيش الفرنسي منهمكة في إضرام سعي جهنمي وكنا نسمع أننا خافتنا من صدور النساء والرجال والبهائم، وكان يتردد في الفضاء صدى طقطقة الصخور المحترقة ورصاصات البنادق المنطلقة .." انظر تنمة هذا العذاب الجهنمي في الأرض عند: (المؤرخ الفرنسي كريستيان الجزائر الفرنسية، عملية خنق أولاد رياح الأصنام 1845م وراجع للتوسع: فرحات عباس، وأحمد توفيق المدني تاريخ الجزائر، إيسكير، احتلال الجزائر العاصمة).

أشلاء متناثرة منفكة بعضها عن بعض، ثم إعادة إخضاعها واستعبادها من قبل الدول الإمبراطورية، بما يتناسب وواقع هذه الدول وبما يلبي حاجاتها"³.

وقد تفاوتت آثار الاستعمار على الشعوب بحسب تجذرها التاريخي والحضاري، وتمكنت الشعوب ذات الإرث الحضاري من التصدي للهجمة الاستعمارية، وظلت تشكل مصدر تهديد لرهاناته ومخططاته، فلم يكن من اليسير أن يُبَيِّد "الرجل الأبيض" هذه الشعوب، كما لم يكن بوسعه إذابتها بسهولة في بوتقته ومشروعه، ومن هنا اتجه عمل المستعمر إلى انتهاج أسلوب الحرب العقائدية الفكرية الثقافية الممنهجة، وإلى "احتلال" العقول والقلوب والضمائر، والتخطيط لتقويض أسس الذاتية الحضارية لتلك الشعوب، ثم ترويضها واستئناسها بما يجعلها تؤمن في الجملة بأن الغرب مقياس المدنية والتقدم.

وهذا ما حصل فعلا على نحو من التعصب الشديد في البلاد الإسلامية والعربية، حيث أخذ الصراع بين الغرب وبين الشعوب الإسلامية سمة شديدة الخصوصية، تتمثل في تلك الأهمية القصوى التي أعطيت للجوانب الثقافية والتربوية والفلسفية والحضارية في خوض هذا الصراع وإدارته، بحيث كان الاستعمار على يقين بأن نجاحه في عملية احتواء هذه الجوانب، أو تحريفها أو تجميدها هو الشرط الضروري لاستمرار السيطرة على البلاد الإسلامية، وإدامة تبعيتها الشاملة، وقد بات واضحا أن تحقيق هذا النجاح يتطلب وضع استراتيجية تربوية محكمة فكرة ونظرا وتنفيذا.

- فما هي المنطلقات النظرية التي استندت إليها استراتيجية الاستعمار الثقافي؟

- وما هي الوسائل والأدوات التي تم بها تنفيذ هذه الاستراتيجية؟

- ثم، وهذا هو المهم بالنسبة للدراسة، ما هي الآثار والنتائج التي خلفتها هذه الاستراتيجية على الشخصية التاريخية للإنسان المغربي، وعلى وضعه التربوي فردا وجماعة؟

تلك هي الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها بتركيز شديد في المباحث الآتية.

المرتكزات الإيديولوجية للاستعمار الثقافي:

ليس عسيرا أن يكتشف الباحث الأهداف المعلنة والخفية التي بنى عليها الاستعمار استراتيجيته التربوية في البلاد الإسلامية والعربية، فقد كان عمل المستعمر في هذه البلاد يسير دائما

3 - حسن الضيقة، بحث "النظرية الاقتصادية أو اللغة العقلانية لمنظومات التسلط الغربي" الفكر العربي ع 37-38، معهد الإنماء العربي، بيروت 1985، ص: 319.

وفق خطط مدروسة وأفكار منهجية مسبقة لا مدخل فيها للمخاطرة أو المجازفة. لذلك نجد على سبيل المثال، بالنسبة للتجربة المغربية الفرنسية وثائق تاريخية كثيرة تتولى بنفسها تشريح الأسس الإيديولوجية لمشروع الاستعمار في مجال التربية، وتكشف بوضوح عن الأهداف الميئة لهذا المشروع والشعارات والدعاوى التي كان يرفعها تضليلا للرأي العام، وتغطية على حقيقة نياته وأعماله!

لنقف عند هذه الوثائق، التي نجدها في الغالب عبارة عن تصريحات رسمية لبعض المسؤولين الاستعماريين الذين خططوا للسياسة الاستعمارية الفرنسية بالمغرب، ولنبدأ بشهادة أحدهم وهو يخاطب جماعة من المراقبين المدنيين الفرنسيين بمكناس عام 1920م، في دورة تكوينية نظمتها سلطات الحماية بالمناسبة لتزويدهم بالأفكار الأساسية وإرشادهم إلى منهجية العمل التي ينبغي اعتمادها لإنجاح "المهمة المقدسة": مهمة فرنسة بالمغرب.

يتحدث هذا المسؤول الكبير وهو "هاردي M.G. HARDY" الذي كان وزيرا للتعليم للحماية الفرنسية بالمغرب عن الأهداف العامة للسياسة التعليمية لدولته فيقول: "منذ عام 1912م دخل المغرب في حماية فرنسا، ولقد أصبح في الواقع أرضا فرنسية، وعلى الرغم من استمرار بعض المقاومة في تخومه، تلك المقاومة التي تعرفون أنتم وإخوانكم في السلام مدى ضراوتها، فإنه يمكن القول بأن الاحتلال العسكري لمجموع البلاد قد تم. ولكننا نعرف، نحن الفرنسيين، أن انتصار السلاح لا يعني النصر الكامل: إن القوة تبني الإمبراطوريات، ولكنها ليست هي التي تضمن لها الاستمرار والدوام، إن الرؤوس تنحني أمام المدافع ولكنها تظل تغذي نار الحقد والرغبة في الانتقام، يجب إخضاع الأبدان، وإذا كانت هذه المهمة أقل صخبا من الأولى فإنها صعبة مثلها، وهي تتطلب في الغالب وقتا أطول"⁴.

وقبل التعليق على هذا النص أودّ، إتماما للصورة وتعزيذاً للفكرة، أن أسوق بعض الشواهد المتسقة روحا ومنهجاً مع ما ذكره "هاردي" آنفاً.

فبعد أن لاحظ "هاردي" انقسام سكان المغرب إلى طوائف ثلاث (وهذا حكم مصادرة كما سيأتي بيانه): (المسلمون، والإسرائيليون، والأوروبيون)، وانفراد كل طائفة بثقافتها وسماتها الاجتماعية الخاصة، ينبه إلى ضرورة مراعاة هذا التقسيم الطائفي عند اقتراح أي خطط لتطوير

4 - M. G. HARDY, «Le problème scolaire au Maroc», Casablanca, 1920.

نقلا عن: محمد عابد الجابري، أضواء على مشكل التعليم بالمغرب، دار النشر المغربية، البيضاء، 1982، ص: 17.

التعليم بالمغرب أو إصلاحه، وعلى هذا الأساس يقول: "نحن ملزمون بالفصل بين تعليم خاص بالنخب الاجتماعية، وتعليم لعموم الشعب؛

الأول: يفتح في وجه أرستقراطية مثقفة في الجملة متحضرة ومهذبة، ولكنها أرستقراطية توقفت عن النمو الفكري بسبب تأثير العلوم الوسيطة (نسبة إلى القرون الوسطى) ...

أما النوع الثاني، وهو التعليم الشعبي الخاص بجماهير السكان الفقيرة والجاهلة جهلاً عميقاً، فسيتمتع بتنوع الوسط الاقتصادي"⁵.

وفي بحث له بعنوان "التربية افرنسية في المغرب" يقدم مدير تعليم الحماية الفرنسية جملة من الحقائق التي ينبغي ألا تغيب عن بال أعوانه، فيما يتعلق بمعرفة شخصية الإنسان المغربي وحالته النفسية والسيكولوجية. يقول: "... بدو المغاربة مثلهم مثل كثير من الحضرة، يعيشون بفهرس من الأفكار والصور ضيق جداً. نفسيتهم "بسيطة" جداً... المغربي من دون شك متخلف عقلياً ومتأخر، لكنه كائن بشري، كسله الفكري بلغ مدى أنه يرفض كل تقدم، حتى ولو كان هذا التقدم لا يقتضيه أدنى مجهود..."⁶.

ويبدو أن التحليل الذي يطل من خلاله "هاردى" على الشخصية المغربية إنما يتعلق بحالة المغربي العربي، أما المغربي البربري (Le Bon Berbère) - كما يحلو له أن يصفه - فله معه شأن آخر وتشخيص خاص: "البربري لا يملك التفاهة الجذباء التي تميز العربي، إنه خلافاً للعربي لم يجس حركته وأحاسيسه في مجموعة من التقاليد الإسلامية الجامدة، إنه ظل قادراً على مجازاة التغير بل التغير السريع"⁷.

ومن التصريحات التي تخدم موضوعنا وتساعدنا على صحة الاستنتاج والتعليق ما يلي:

أ- "منذ استتباب نظام الحماية بالمغرب، والإدارة الفرنسية لم تأل جهداً لمساعدة هذا البلد الذي طال مكوثه في القرون الوسطى "Medièval" على تجاوز الهوة السحيقة التي تفصل بينه وبين الأقطار الغربية" [لابون LABONNE المقيم العام الفرنسي بالمغرب 1946]⁸.

5 - M. G. HARDY Ibid, p : 10.

6 - M. G. HARDY, «L'Education Françaises au Maroc», La revue de Paris, 1921.

7 - تصريحات مترجمة من قبل الباحث، انظر نصها الأصلي لدى:

Jamil Salmi, crise de l'enseignement et reproduction social au Maroc. E.D. Maghrébines Casablanca, 1985, p : 15, 17, 18.

8 - نفسه: ص 23.

ب- "لكي نتشغل الشعوب المسلمة من الأحكام الرجعية التي تحول بينهم وبين حضارتنا، ولكي نرفع من مستواهم الأخلاقي والثقافي لم تجد فرنسا وسيلة أنجع من التعليم الأولي" [لارشر (Larcher) 1939م].

ج- "المغرب بلد متهالك رث عاجز عن الخروج من النفق الذي قاده إليه الاستبداد المتعصب، وتختلف المغاربة. كل المؤشرات تدل على أننا نشهد آخر أيامه بصفته دولة مستقلة". [فريش (FRISH) 1895م].

د- "ما الذي يقف في الوقت الراهن ضد عملية التمدريس الشامل والمستعجل للشباب المغاربة، رغم كل الجهود التي تبذلها الإدارة الفرنسية؟! إنه الجمود المترسب من القرون السالفة" [Celerier, 1951]⁹.

هـ- "إن الوسيلة الوحيدة الضامنة لتغيير الشعوب في مستعمراتنا من أجل جعلهم متعاطفين مع قضيتنا، نافعين لمشاريعنا، هي أن ندخل الأهلي وهو ما يزال طفلا إلى المدرسة حيث سيتكيف هناك عقله وفق نياتنا" [هاردي (HARDY) 1921م]¹⁰.

نلاحظ من خلال هذه التصريحات أن الإيديولوجية الاستراتيجية التربوية الاستعمارية قامت على مبادئ وأهداف ثلاثة:

1 - المبدأ الأول: مقولة "المهمة التمدينية"

مقولة تحضير أو "تمدين" بلاد المغرب وسكانه هي المهمة التي يجب الاستعمار أن يكني عنها دائما بعبارة: "المهمة التمدينية" [La Mission civilisatrice]¹¹ إنها مهمة لا تعني في الواقع سوى امتشاق

9 - نفسه.

10 - المرجع السابق.

11 - كان مفهوم "الرسالة التمدينية" في النصف الأول من القرن التاسع عشر ذا مضمون تبشيري مسيحي (نشر السلام، تطهير الروح، الأخوة الإنسانية) بالرغم من أن الحكومات الرأسمالية كانت أشد معاداة للكهنة الكنسي في بلدانها، ثم ما لبث هذا المفهوم أن اتخذ أبعادا علمانية مصلحية نحو: تعليم القانون، تحرير المرأة، نقل المدنية، تحديث الإدارة والجيش، بناء الطرق والسكك الحديدية... الخ، على نحو ما يشي به العنوان "الدعائي" الفج لكتيب فرومانتال، نشر 1837: "بحث في تهدئة الجزائر واستعمارها وأمنها وازدهارها وقوتها ومجدها!!". فمن الواضح أن جميع هذه الأوصاف مرادفة في وعي فرومانتال لأعمال التخريب والقرصنة اللازمة في العادة للفعل الاستعماري، وبهذا المفهوم كان يدين السان سيمينون، ومنهم ميشيل شوفاليي، ولافونتين وأتباع فوريه، وغيرهم بناء على أن الاستعمار ضرب من التجربة الاجتماعية على أراضي جديدة، وتجدد الإشارة إلى أن دعاة الاستعمار قد أبدعوا تعابير أخرى في هذا السياق مثل: "العمل التمديني œuvre civilisatrice" و"الغزو التمديني conquete civilisatrice".

سلاح الطعن والتجريح ضد القيم المحلية والمؤسسات والرموز الخاصة بالأمة وثقافتها وتراثها وتاريخها. وبموازاة هذه العملية كانت مقولة "المهمة التمدينية" تعني، من جهة أخرى، إطناب المستعمر في التبجح بمناقب حضارته ومزاياها، وملاً الأذان بالكلام عن تاريخ الإمبراطورية وفتوحاتها، وتأكيد الفروق بين نموذج الحياة الأوربية وبين وضع التخلف العارض الذي انحطت إليه الحياة الإسلامية؛ انظر إلى قول أحدهم وهو ينطلق من هذه النزعة الاستعلائية المولعة بالتمركز على الذات، والتفتيش عن مثالب الغير ونقائصه، من أجل سلخ كل فضيلة عنه؛ إنه المنظر الاستعماري (برات BARRAT) الذي يصف المغرب في أول عهده بالحماية قائلاً: "كان مغرب 1912 قصراً جميلاً في غابة نائمة، بلداً أخلد إلى السبات العميق منذ القرون الوسطى، تصوّروا لا يوجد "كيلومتر" واحد معبّد من الأرض... إننا نحن، إذن، الذين حملنا له الحضارة"¹².

ومن أجل ذلك كان المدير المؤتمن على تنفيذ الخطة التربوية الفرنسية "المسيو هاردي"، والذي أشرنا إلى بعض تصريحاته آنفاً، يشدد على ضرورة تعليم الأهالي اللغة الفرنسية لأنه بواسطتها "ستتمكن من ربط تلاميذنا بفرنسا"، وعلى أهمية التركيز على درس التاريخ "لأنه من طريقه سيأخذ الأهالي فكرة عن مجد فرنسا وعظمتها"¹³.

ويعتقد هاردي أن وضع السياسة التعليمية على هذا المنوال هو الكفيل "بتغيير الأشخاص البدائيين في مستعمراتنا، وجعلهم متمثلين لقضيتنا نافعين لمشاريعنا وجعل عقولهم تتشكل حسب نياتنا"¹⁴.

إن رسالة فرنسا في المغرب، كما تقرر ذلك الإيديولوجية الاستعمارية، رسالة تمدينية حضارية إزاء بلد خلاب جميل لا يملك طريقاً واحداً معبداً، بلد "أنهكه الاستبداد، والعيش في كنف أفكار خيالية ترجع إلى القرون الوسطى" (!) مما يدل على أنه "يعيش آخر أيامه دولة "مستقلة" (!!)" (FRISH م 1895)¹⁵. المغرب بلد متهالك رث عاجز عن مفارقة التكلس الفكري الذي ورثه عن العصور السالفة (Celrier 1951).

ولذلك، فإن آفاقهم الفكرية والتصورية ضيقة جداً، وتكوينهم العقلي والنفسي ضعيف كذلك (!) المغربي إنسان متخلف عقلياً كما يقول "مسيو هاردي" لكنه في جميع الأحوال كائن بشري!

12 - R. BARRAT : «Justice pour le Maroc», Paris 1930.

13 - M. G. Hardy. Ibid, p : 19.

14 - M. G. Hardy, «Une conquete morale», Paris, 1917 d'après : Jamil Salmi, Ibid, p : 21.

15 - R. Frish : «Le Maroc» Paris, 1985, d'après : Jamil Salmi, Ibid, p : 17.

وإن كسله العقلي وجموده الثقافي هما سبب رفضه للمعرفة والتعلم، ورفض كل تقدم في أسلوب الحياة " حتى ولو كان هذا التقدم لا يستدعي منه أدنى جهد"!!

هكذا افتعلت الإيديولوجية الاستعمارية "الحجج" وفصلتها بتبجح وادعاء لتسويغ مهمة تدمير الإنسان والأرض والقيم، وإجراء عملية الاغتصاب الثقافي التي يعرفها "ثورنتون Thornton" بقوله: "إنها العملية التي تصف نفوذ ثقافة في ثقافة أخرى، وتخللها بأفكارها وعاداتها وغاياتها"¹⁶.

إن الاستعمار "هو أظنع تخريب أصاب التاريخ"، إذ إن المستعمر إما أن يقضي نحبه، أو تذوب شخصيته، أو ينتظر؛ ومع ذلك يشعر دهاقنة الاستعمار؛ بالرغم من ثقتهم بجبروتهم، بالحاجة الماسة إلى اختلاق مسوغات لعمله ومشروعه التخريبي.

والملاحظ أن المستعمر كان حريصا على أن تتم صناعة المبررات، أو قل إن شئت "الحيل النظرية" وفق لغة منطقية معقولة ومنسجمة. فهو لا يفتأ يردد أن الرسالة المجيدة لأوربا هي تمدين الأفارقة، وبخاصة أهل المغرب.

وتشدد معظم التصريحات الأنفة على الحوافز النفعية في خطابها، مع التأكيد في الآن نفسه على مفاهيم الشرف، والحضارة، والنزعة الإنسانية، والواجب المقدس، والعطف، والسلام، والتضامن، والتعاون.. باعتبارها المحفزات الوحيدة التي تحمل الاستعمار على الفعل والمبادرة (!) بيد أن هذه اللغة سرعان ما تتكشف، إذا جدد الجد، عن لغة عنيفة متسلطة، تُرشق فيها المقدسات والرموز المحلية بألوان من الإذابة والتجريح والعنف الرمزي.

ومما كانت المجامع الفكرية والأكاديمية تتخذه موضوعا للبحث والمطارحة والمناقشة السؤال التالي: "هل الإنسان المغربي قابل للتمدين والتعليم أصلا أم لا؟! بل يذهب الصّلف الاستعماري بمسؤول كبير وهو يتكلف البحث عن مسوغات تاريخية لخطّة الإدماج بين فرنسا والجزائر إلى الزعم بأنه: "منذ خلقت الدنيا لم يعرف التاريخ وحدة للشعب الجزائري وبالأحرى سيادة له!!"¹⁷.

والجدير بالتدبر في هذا السياق، أن ما اصطلحت عليه "بالحيل النظرية" التي تضمنها الخطاب التمديني الاستعماري، كانت متأثرة إلى حد كبير برافدين اثنين الأول ديني مسيحي، والثاني أكاديمي.

16 - أ. ب. ثورنتون، عقائد الإمبريالية، 1965م، ص: 187.

17 - فرحات عباس، ليل الاستعمار، تعريب أبو بكر الرحال، مطبعة فضالة، المحمدية، دون تاريخ، ص: 54.

1- الرافد الديني المسيحي

في سنة 1830م وصف كلير موناتونير وزير حرب شارل لمليكه احتلال الجزائر بقوله: "إنه عمل عظيم أنعمت به العناية على فرنسا، لتمدين العرب، وجعلهم مسيحيين"¹⁸. ولقد عبر لامارش عن نظير هذا الموقف في كتيب نشر سنة 1846م بعنوان (أ.م.م. A.M.M) قائلا: "إن هدفنا من الغزو وهو هدف لا داعي لستره عن الأوربيين ولا عن العرب هو الدعوة إلى المدنية المسيحية في إفريقيا"¹⁹.

ويصف المؤرخ "مايكل مارتن" الأجواء النفسية التي اصطحبت قرار ابتعاث الجيش الإسباني لغزو المغرب بما يذكرنا بثارات الحروب الصليبية القديمة، حيث يقول: "واجتاحت أركان البلاد الإسبانية، من أقصاها إلى أقصاها موجة من الدعاية السياسية الشوفينية، وقد قورنت وقتها الملكة "إيزابيل 2" بإيزابيل المسماة "بالكاثوليكية"، وقيل إنها ستحقق في إفريقيا إرادة الملكة العظيمة "إيزابيل 1". وانخرطت الملكة نفسها في اللعبة حين أهدت جواهرها لفائدة المشروع مذكرة أن إيزابيل الأولى كانت قد أهدت جواهر من أجل سفر "كولمبوس"، بل نطقت بقولتها التاريخية: "لتُبَع جواهري إن كان ضروريا لنجاح مشروع بهذا القدر من القداسة!" وأخرجت الصحافة الإسبانية المسألة من نطاقها كلية، وأضفت على هذه المغامرة الاستعمارية طابع حرب صليبية مقدسة..."²⁰.

ولنا أن نتساءل: ما علاقة العناية الإلهية بمغامرة استعمارية مرتزقة تذهب كل مذهب في النهب والعتو والابتزاز؟ لا جرم أن الغرب بلغ من الغثاثة الفكرية درجة أنه أضحي لا يتردد أن يمسح رجسه السياسي بدين المسيح عليه السلام وتعاليمه لتسويغ نزواته، وتحقيق مآربه.

2- الرافد الجامعي الأكاديمي

إن المعارف والمعلومات والنظريات الفلسفية والثوابت العقدية التي سادت الغرب منذ القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر، جاءت جميعها متطابقة مع مشروعية النموذج الغربي الحديث في تعبيراته العالمية، حيث كانت مؤيدة ومباركة لتوجهات الاستعمار ورهاناته.

فلو استطلعنا مثلا رأي الفيلسوف الألماني "هيجل" في موضوع مسار المجتمعات البشرية وأطوار تاريخها، وجدناه يصرح بأن: "تاريخ العالم يتجه من الشرق إلى الغرب، لأن أوروبا هي نهاية

18 - ج. ب. بيوليه، الرسالة الكاثوليكية الفرنسية في القرن التاسع عشر، باريس، 1902، نقلا عن: مروان بحيري "بلانادي لافاي: نقد البعثة الفرنسية إلى الجزائر" الفكر العربي، ع: 32، بيروت، 1983م، ص: 85.

19 - المرجع نفسه، ص: 85.

20 - مايكل مرتين، الاستعمار الإسباني في المغرب (1860م-1956م)، ترجمة: عبد العزيز الودي، منشورات التل، الرباط، 1988، ص:

13 وما بعدها.

التاريخ على نحو مطلق، كما أن آسيا هي بدايته، فالشرق لم يعرف ولا يزال حتى اليوم لا يعرف سوى أن شخصا واحدا هو الحر، أما العالم اليوناني والروماني فقد عرف أن البعض أحرار، على حين أن العالم الجرمني عرف أن الكل أحرار، ومن ثم، فإن الشكل السياسي الأول الذي نلاحظه في التاريخ هو نظام الحكم الاستبدادي، والثاني هو نظام الحكم الديمقراطي الأرستقراطي، والثالث هو نظام الحكم الملكي، فالنموذج الغربي الحديث عند "هيجل" هو التجسيد التاريخي أكثر نضجا واكتمالا، وبالتالي، فإن نفيه وتدميره لما دونه من نماذج مجتمعية تدرج ضمن تصور عقلائي، يهدف فيه هذا المظهر الأخير (الروح العالم) إلى احتلال الساحة العالمية بمفرده، وتكنيس التاريخ مما يعيقه من معارف وعقائد وفنون وقوانين وعادات تنتمي إلى مرحلة أدنى، أضحت ناقصة ولا عقلانية بسبب ظهور النموذج الأرقى في التاريخ!!²¹.

وبالرغم من أن الاتجاه الماركسي يطرح نفسه بديلا مناقضا للنموذج الرأسمالي، فإنه لا يخرج عن النسق الحضاري الأصلي، الذي قامت على قاعدته كافة المدارس الفكرية الغربية، "فانطلاقا من معايير تجزيئية مختلفة عن الآخرين ترسي المدرسة الماركسية تصورا للرأسمالية على مستوى النشأة والتكوين، وعلى مستوى الحركة والأفق، يجعل من الرأسمالية غاية التاريخ ومحط رحاله"²²، ويجعل من الاستعمار الرأسمالي رغم قتامة وبشاعة مآسيه سبيل الشعوب إلى الرقي والحضارة. ولطالما رددت الماركسية المقالة القائلة:

"إن الاستعمار هو أداة التاريخ غير الواعية" أي إنه الأداة التي تقود الشعوب إلى تبني نموذج التمدن الأوربي وهي لا تقصد ذلك؛ وكأن هذا العمل مع ما يرافقه من تقتيل وتدمير وابتزاز عمل تاريخي خلّاق يجب أن يتحقق بغض النظر عن اختيار الناس ورضاهم.

وإذا، ليس نشازا أن يندرج النص الماركسي ضمن مراجع العنف الرمزي الذي استعمل لتسويق التسلط الاستعماري، وممارسة التأويل الفلسفي والنظري للإمبريالية الثقافية بالغرب. فقد قدم ماركس في "البيان الشيوعي" تصوره للنموذج الغربي الحديث قائلا: "بالإتقان السريع لأدوات الإنتاج، وبالتحسين الدائم لوسائل المواصلات، تجر البرجوازية إلى تيار الحضارة حتى أشد الأمم همجية. أما رخص منتوجاتها فيظل المدفعية الثقيلة التي تشن بها هجوما عنيفا على جميع الأسوار

21 - حسن الضيقة، "النظرية الاقتصادية" مجلة الفكر العربي، ع: 38/37 معهد الإنماء العربي، بيروت 1985، ص: 326.

22 - حسن الضيقة، مرجع سابق، ص: 329.

الصينية، وبها ترغم على الاستسلام أشد الهمج مراسا في عدااء الأجانب، وتقود قسرا جميع الأمم، تحت طائلة الهلاك، على تبني نمط إنتاج البورجوازية.. باختصار فهي تخلق عالما على صورتها"²³.

ولم يقتصر الدور الأكاديمي لمنظري الغرب على ما ذكرنا من الدعاية النظرية لمشروع الاستعمار، بل وجدنا الأمر يصل في بعض الأحيان إلى الدعوة السافرة لاحتلال بلد معين على نحو ما نجده عند فولتير (Voltaire 1694-1778) في كتابه "محاولة في العادات الأخلاقية" (Essai sur les mœurs)، حيث قدم معلومات عن المغرب، وذكر بأن حدوده تتصل بحدود غينيا، وتحدث عن مناخه الجميل وثرواته الهائلة ومعادنه المختلفة، مثيرا بذلك في قومه شهوة الثروة، ثم انتقل إلى الحديث بتعصب شديد عن سكانه "المغاربة"، وعن دينهم الإسلامي الذي تحامل عليه بعنف، والدور التاريخي الذي أنجزه المغرب في الأندلس.. ورد فعل الإيبيري (الإسباني - البرتغالي) باحتلال شواطئه الذي قال عنه إنه رد فعل ضعيف وغير كاف، مستغلا هذه الفرصة ليتأسف على الخلافات الحاصلة بين الدول المسيحية، وليؤكد بالمناسبة ضرورة الوحدة ضد المغرب، والمسارعة إلى غزوه...؟!.

ومن احتذى بفولتير هنا باديا والموسوعيون وشارل ديدي ومارس هنري وليون كوداك وغيرهم²⁴.

ولا يمكن الحديث عن أثر الرافد الأكاديمي الجامعي في التأسيس للمبررات النظرية للاستعمار دون أن نتحدث عن دور الاستشراق في هذا الباب. فلقد أدى الاستشراق دورا كبيرا في توجيه النظرة الأوروبية إلى المجال الإسلامي العربي، وتغذية محاور الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، وعمل مخلصا على إمداد السلطة الاستعمارية بعناصر القوة السياسية والفكرية، لتمكينها وتهيئة المناخ المناسب لاستمرارها.

23 - كارل ماركس، البيان الشيوعي، ترجمة العفيف الأخضر، بيروت 1975م، ص: 57، وإيماننا بهذا الثابت العقائدي، كتب كارل ماركس وأنجلز في مؤلفهما المشترك "الماركسية والجزائر" ما يلي: "من حسن التوفيق الكبير أن نكون الزعيم العربي (الأمير عبد القادر) قد أسر.. وأن فتح الجزائر واقعة مهمة وموامة لتقدم الحضارة، ولا يجوز أن ننسى أولئك البدو (الجزائريين) أنفسهم هم شعب من اللصوص، وبعد كل حساب فإن البرجوازي المعاصر مع الحضارة والصناعة والنظام و"الأنوار" التي يحملها معه الأفضل - على كل حال - من المولى الإقطاعي، أو لص قاطع الطريق، ومن الطور الهمجى من المجتمع الذي ينتمي إلى " (راجع للتوسع بحث: وجيه كوثراني، مجلة "شؤون عربية" بيروت، ع: 27. وحسن الضيقة، "الإيديولوجية الماركسية أو الوجه الآخر للفكر الاستعماري الغربي الحديث" ع: 6، بيروت 1981م).

24 - أحمد العماري، "التغيير في إشكالية الإصلاح - التجديد بالمغرب خلال القرن 13هـ/19م"، مجلة الهدى، ع 14، الرباط 1986، ص: 8.

لم يكن الاستشراق في الأساس معرفة علمية خالصة، بل كان رؤية سياسية للواقع، رؤية روج المستشرقون خلفيتها الفكرية والمنهجية على أساس الميز بين المؤلف (أوربا/نحن) وبين الغريب (الشرق/الغير)، الذي كان ينظر إليه بوصفه مكانا للتجارب الإنسانية أو "حقلا للاكتشاف" على حد عبارة إدوارد سعيد.

فالاستشراق بهذا يعد أحد مصادر التنظير المركزي الأوربي للتعامل مع العالم، وإعادة قراءة التاريخ البشري الكوني خدمة لمصلحة الغرب وتغلبه، ومن ثم اتسمت المعرفة الاستشراقية منذ البداية بالشعور بالفوقية الإثنية، وازدراءها للشعوب، وبخسها للحضارات المختلفة في مفاهيمها للإنسان والحياة والاجتماع.

وهذا ما جعل الوعي الأوربي إلى الآن ينظر إلى الشرق بوصفه حدثا من مخترعات الغرب وممتلكاته التي يجب دائما أن يُحكم ويُمثل ويُؤمن ويُرى من قبله، وهذا الذي يفسر لنا أيضا التماهي الموجود بين نتائج المعرفة الاستشراقية من جهة، وبين مواقف وممارسات السلطة السياسية الاستعمارية من جهة أخرى.

ولم تكن علاقة الاستشراق بالإيديولوجية الاستعمارية قاصرة على مجرد إضفاء طابع التبرير الفكري على المبدأ الاستعماري، بل كان الأمر كما يؤكد إدوارد سعيد أبعد من ذلك وأعماق، إذ أصبح الفكر الاستشراقي مرجعا للاستشارة ودليلا معتمدا لدى الاستعمار في فهم ومعالجة مشاكل المجتمعات المحلية وانفعالاتها، وفي إخماد المقاومة الروحية والمعنوية في شعوب هذه المجتمعات، فمثلا كان المستشرق "دي ساسي" ابتداء من عام 1805م يشغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية، وعندما همت فرنسا بغزو الجزائر عام 1830م، كان "دي ساسي" هو الذي ترجم البيان الموجه للجزائريين!.

وكان "ماسينيون" مستشارا للإدارة الاستعمارية في الشؤون الإسلامية، وقد وضع معرفته الواسعة بالإسلام رهن تصرف المفوضية الفرنسية في سوريا عام 1925م لحل مشكلة الانتفاضة السورية آنذاك، وإلى الآن مازالت مقالات وأبحاث "برنارد لويس" تفرض ضغطها وتأثيرها على مراكز القرار السياسي الأمريكي إذا تعلق موضوع القرار بشأن من شؤون الشرق الأوسط أو الإسلام أو العرب، وهذا ليس بمستغرب إذا علمنا أن بناء السيطرة الأوربية قام منذ البدء على قاعدة الربط بين المعرفة والقوة، على نحو ما بينه "بلفور" في إحدى محاضراته بمجلس العموم البريطاني بقوله: "المعرفة بالأجناس المحكومة أو الشرقيين هي التي تجعل حكمهم سهلا ومجديا.

والمعرفة تمنح القوة، ومزيد من القوة يتطلب مزيدا من المعرفة، فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية"²⁵.

لقد كان الفعل الاستشراقي من هذه الناحية، يمثل "شكلا من الأشكال الممهدة للاختراق الثقافي الغربي عبر ما أرساه في أذهان جيل من المثقفين العرب من أنماط منهجية في النظر والتفكير والمعالجة، وذلك في شتى العلوم التي تأسست في العصور الأوربية الحديثة"²⁶، كما قد تركزت أهدافه على "خلق التخاذل الروحي، وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة"²⁷.

ومن المؤسف أن يسجل الباحث هنا: أن التقاليد المنهجية والأحكام والإيجاءات الاستشراقية مازالت مهيمنة على النمط المعرفي المأخوذ به في البلاد الإسلامية حتى اليوم، وإنها ما تزال شديدة الرسوخ خاصة في مراجع الوعي الثقافي الحديث تحت عباءات وألقاب عدة، مما لا يسعنا معه إلا الاعتراف بأن جهودنا في درء غلواء الاستشراق، على عظمها وأهميتها واتساعها، أخفقت في تحقيق هدفها الكبير !!

1 - المبدأ الثاني اعتماد خطة التقسيم والتجزئة:

لتأمل أولا في دلالات هذا المبدأ كما يفصح به منطوق "النص السياسي الاستعماري" للمسيو "بول مارتي" مدير ثانوية مولاي إدريس، وأحد أبرز مخططي السياسة التعليمية الفرنسية بالمغرب: "هناك انقسام طبقي واضح في المغرب: فالطبقات تتميز بعضها عن بعض بوضوح، كل منها سعيدة بحظها ونصيبها"²⁸، ونظير هذا الحكم المسبق أو حكم المصادرة ما سبق لنا سوقه من كلام "هاردي" في تقسيمه سكان المغرب إلى طوائف ثلاثة: "المسلمين، الإسرائيليين، الأوربيين، لكل منها ثقافتها الخاصة وتعليمها الخاص. والتجديد أو التطوير الذي ينبغي على الحماية إدخاله في التعليم يجب أن يراعي هذا التقسيم الطائفي أولا كما يجب أن يراعي الوضعية الخاصة لكل طائفة!". وفي دراسة للوضعية الخاصة للطائفة المسلمة يستنتج "هاردي" أنها بدورها تنقسم إلى ثلاث طبقات متميزة: "طبقة النخبة وهي متعلمة مثقفة نسبيا، وتتكون من رجال المخزن والعلماء

25 - إدوارد سعيد: الاستشراق، تعريب: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1981م، ص: 68، وراجع للتوسع:

عمر فروخ والخالدي، التبشير والاستعمار، ص: 30.

26 - نور الدين العرباوي: التربية والتحديث في تونس، دار الصحوة للنشر، حلق الوادي، تونس 1990م، ص: 28.

27 - محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر، بيروت 1970، ص: 534.

28 - Paul Marty : «Le Maroc de demain», Paris 1923, p : 122.

والأعيان، وجماهير المدن الكادحة الجاهلة المحرومة، وجماهير البادية المنعزلة المبعثرة. والعبرة الرئيسية من هذا الدرس هي قوله: "وهكذا فنحن ملزمون بالفصل بين تعليم خاص للنخبة الاجتماعية وتعليم خاص لعموم الشعب؛ الأول يفتح في وجه أرستقراطية مثقفة في الجملة متحضرة ومهذبة، أما النوع الثاني وهو التعليم الشعبي الخاص بجماهير السكان الفقيرة والجاهلة"²⁹.

وبالفعل، أقامت الحماية الفرنسية نظامها التعليمي بالمغرب على أساس إعمال سياسة التجزيء والتفتيت، وزرع بذور التناقض والشقاق الداخلي بين أبناء "الأمة الواحدة"، فأنشأت ثلاث أنواع من المدارس:

- 1- مدارس أوربية خاصة بأبناء الأوربيين، وهم في الغالب الأعم وافدون من فرنسا.
 - 2- مدارس أبناء الأعيان والثانويات "الإسلامية"، وهي مدارس مخصصة لنخب المخزن (أبناء الأعيان والوجهاء)، مهمتها إنتاج وإعادة إنتاج نفس النخبة، وإعداد الموظفين الصغار والمتوسطين، ليقوموا بدور الوسيط بين الحماية الفرنسية إدارة واقتصادا، وبين "الأهالي" المواطنين المغاربة.
 - 3- مدارس "ابتدائية مهنية" في بعض المناطق الحضرية والقروية، ومهمتها تكوين يد عاملة تخدم الاقتصاد الاستعماري في مختلف الميادين"³⁰.
- بالإضافة إلى هذه المدارس عمدت فرنسا إلى تأسيس ما أسمته "بالمدارس الفرنسية البربرية" وهي مدارس كان يراد منها:
- أ- احتواء حركة الجهاد الأمازيغي التي اتخذت من جبال الأطلس معقلا لها، تبعا للقاعدة السيكلولوجية القائلة: "إن المدفع يدفع الثوار، والمدرسة تجلب السكان"، لذلك تم غرس هذه المدارس منذ البدء في مناطق معروفة ببلائها المشهود ضد الاستعمار مثل منطقة الريف وقبائل الأطلس المتوسط والأطلس الكبير.
 - ب- توهين الجامعة الإسلامية، وتحطيم الوحدة الفكرية الشاملة بين أشقاء الكيان المغربي، وذلك بتوقيع الفصل الثقافي والمعنوي والحضاري المتعسف بين العنصر الأمازيغي والعنصر العربي، وبتكوين جيل من المغاربة الأمازيغ منسلخ تماما عن الثقافة الإسلامية، مغترب بكيئته في الثقافة الفرنسية والقيم الاجتماعية المسيحية.

29 - M. G. Hardy : «Le problème scolaire au Maroc». Ibid, p : 19.

30 - محمد عابد الجابري: رؤية تقدمية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية، دار النشر المغربية، البيضاء، 1982م، ص: 172 (بتصرف).

والواقع أن هذه المدارس لم تكن إلا خطوة من خطوات مخطط تجزيئي بعيد المدى، طويل الذيل. إنه مخطط شرعت في تطبيقه سلطات الحماية منذ أن أقدمت على تأسيس معهد لللهجات البربرية (1913م) لدراسة أصولها وكلماتها تمهيدا لبعثها لغة في التعليم والكتابة إلى "أن استصدر المارشال ليوطي ظهير سبتمبر (1914م) بدعوى احترام التقاليد البربرية، واستمرت تبدو في مظاهر متعددة إلى 16 ماي 1930م حيث تجلت في ما يسمى بالظهير البربري"³¹.

لقد أصل (جود فروي GAUDE FROY) بعض منطلقات ومحاور هذه السياسة التجزئية بقوله: "من الخطر أن نترك كتلة ملتحمة من المغاربة تكون لغتها واحدة وأنظمتها واحدة، لا بد أن نستعمل لفائدتنا العبارة القديمة: "فرق تسد". إن وجود العنصر البربري هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربي، ويمكننا أن نستعمله ضد المخزن نفسه"³².

وتعريفا بهوية هذه المدارس واستجلاء أهدافها، نمعن النظر مرة أخرى في تصريح مدير ثانوية مولاي إدريس حيث قال: "لقد حصل الاتفاق بين إدارة التعليم العمومي وإدارة الشؤون الأهلية وتحددت بذلك مبادئ سياستنا التعليمية البربرية بكامل الدقة، إن الأمر يتعلق هنا بمدارس فرنسية بربرية، مدارس تضم صغار البربر، يتلقون فيها تعليما فرنسيا محضا... إن المدرسة الفرنسية البربرية هي إذن مدرسة فرنسية بالمعلمين بربرية بالتلاميذ، وليس هناك أي مجال لأي وسيط أجنبي... إن أي شكل من أشكال تعليم العربية، وإن أي تدخل من جانب الفقيه، وإن أي مظهر من المظاهر الإسلامية، لن يجد مكانه في هذه المدارس، بل سيقصى منها بكل صرامة، إن الآراء هنا وفي كل مكان متفقة على هذه النقطة"³³.

ومن حسن حظنا أن "مارتي" بعد هذا التحريض المتعصب لا ينسى إحالتنا على صاحب الفضل عليه في صياغة هذا المشروع وإخراجه، فيعرفه قائلا: "إن الضابط الذي تكلف بتطبيق المشروع قد أسعده الحظ لكونه كان معززا في مهمته، خطوة خطوة بواحد من ألمع المختصين في الشؤون الإسلامية وفي الاستشراق الفرنسي؛ إنه "لوي ماسينيون" الأستاذ بالكوليج دي فرانس"³⁴.

31 - علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مؤسسة علال الفاسي، الرباط، ط 5، 1993، ص: 164.

32 - R. Gaude fory Demonbynes.. l'œuvre Française en matière d'enseignement au Maroc, Paris 1928, p: 119.

33 - Paul Marty, «Le Maroc de demain», Ibid, p : 241.

34 - محمد عابد الجابري: أضواء على مشكلة التعليم بالمغرب، ص: 31/30. ومن غريب المناقضة التي وقع فيها الجابري هاهنا مع نفسه، أنه أورد عددا من هذه التصريحات مع تأكيده بمكان آخر (ص: 23) أن إحدى أهم مرتكزات السياسة الاستعمارية "الحفاظ على الروح الدينية، لأن إدخال العلمانية للمدارس - على حد تعبيره - يعني إدخال نار الثورة في المجتمع المغربي" (!). والعكس هو الصحيح تماما سواء بمعيار منطق الوثائق الاستعمارية التي أوردنا نذرا منها، أو بمعيار منطق تطورات الأحداث فيها بعدا.

وكتب (م. لوجلاي MAURICE LEGLAY) أحد موظفي الإقامة العامة في مقال بعنوان (المدرسة الفرنسية لدى البربر) ما يأتي: "يجب أن يجذف تعليم الديانة الإسلامية واللغة العربية من مدارس البربر، وأن تكتب اللهجات البربرية بحروف لاتينية"³⁵.

وصرح ليوطي بأن أهم المرتكزات التي اعتمدها في تحقيق الضبط السياسي في المغرب هو عمله على إذكاء التمايزات والتناقضات العصبية واللغوية والإثنية بين العنصر "البربري" والعنصر العربي، ذلك ما يؤكد به قوله: "سر إخضاع المغرب هو حماية البربري من جميع التدخلات في حياته الشخصية وفي عوائده.. ولو أنني لم أغز الروح البربرية لكان من المستحيل بناء مغرب كبير.. كنت دائما سندا للعنصر البربري خارج إطار الإسلام"³⁶. وتعليل هذا التحيز المكشوف كما بينه "هاردي" فيما سبق كون البربري الطيب (Le bon berbère) لا يملك التفاهة الجذباء التي يمتاز بها الإنسان العربي المغلق انغلاقا تاما على التقاليد الإسلامية الجامدة "!! ولم تكن السياسة البربرية هي وحدها المعبرة عن مشروع وأهداف التقسيم الاستعماري في المغرب، بل كانت هناك سياسات أخرى في مجالات مختلفة تدل على أنها كانت تأخذ بمفهوم شامل وعميق لمبدأ التجزئ ووظيفته. وهكذا فكما افتعل الاستعمار الصراع والانقسام بين أخوين صميمين: العرب والبربر، افتعل الفصل والخصام بين الإسلام والعروبة، وبذل كل ما بوسعه للتفريق بين قضايا الوحدة المغربية وقضايا الوحدة العربية، والتفريق بين قضايا المغرب العربي وقضايا المشرق العربي والإسلامي، ثم لم يفتأ الاستعمار يؤجج نار الصراع وتكريس وضعية الثنائية الحازبة بين اللغة العربية الأم وبين اللهجات المحلية، وبين القديم والجديد، وبين "قطاع تقليدي" وطني أصلي وبين "قطاع عصري" أوروبي مستحدث.

ويمتد رواق الثنائية ليتفتح على صور وأنماط من الانفصال والشقاق بين المدينة والبادية، وبين مغرب نافع (الوسط) ومغرب غير نافع (الشرق)، وبين المركزية والجهوية، وبين القطاع الفلاحي والقطاع الصناعي، وبين التخصص النظري والبحث التطبيقي، وبين الشعب الأدبية والشعب العلمية، وبين التعليم العام والتعليم التقني، وبين التعليم الشرعي (الأصيل) والتعليم العصري.

بل امتدت أخاديد الثنائية الحادة للفصل بين الرجل والمرأة، وبين الآباء والأبناء، وبين الدين والسياسة، وبين الثقافة والسياسة، أو بين النخب العالمة والدولة، وبين العامل ورب العمل، وبين

35 - علال الفاسي: الحركات الاستقلالية، مرجع سابق، ص: 163.

36 - B. Gaulis : «Lyautey Intime », Paris, Berger, 1938 (d'après) : Jamil Salmi, Ibid, p : 36.

الجهاز المدني والجهاز العسكري، وبين عامة الأمة وخاصة الدولة، بكلمة بين مختلف فئات المجتمع وقطاعاته وفعالياته³⁷.

وهكذا ينجح الاستعمار في تفسيح المجتمع المغربي وإذكاء أسباب التوتر والشقاق في كل منشط من مناشط حياته، بما لا يهتدي معه إلى سبيل للخروج من نفق التخلف، ومن قابلية الانقسام والتجزؤ إلا بلأى وجهد.

إن هذه "البُنيّات" والانفصامات تقدم تفسيراً مقنعاً لمختلف مشكلات الانحطاط التاريخي المعاصر، وتكاد تشرح إلى حد كبير ظواهر الاختراق والتحزب والانشطار التوالدي التي يعاني منها الجسم الثقافي والحضاري للعالم الإسلامي والعربي الحديث. قد يكون من المفيد هنا أن نبصر أموراً مهمة وهي:

1- أن واقع التجزئة والانشطار الذي رعاه الاستعمار الأوربي في البلاد الإسلامية تحت عباءة "مقولة الرسالة الحضارية" والذي كرسته الحكومات تحت شعار التحديث الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، يشكل عنصراً أساسياً في فهم وتحليل "الأزمة التاريخية الشاملة" التي طالت مختلف الجوانب والمناشط سواء تعلق الأمر بأزمة الهوية وقضية الاستقلال الثقافي، أم بفشل تجارب التنمية والوحدة والتقدم، أم بتلكؤ مسيرة البحث العلمي والتقني والنهضة الصناعية والزراعية أم تعلق الأمر بأزمة بناء المجتمع المدني ودولة المؤسسات، أم بأزمة التربية والقيم والأسرة والعلاقات الاجتماعية، أم بفشل إنجاز مشروع التحديث والتحرر من طوق التبعية للأجنبي، كل ذلك يتصل من قريب أو بعيد، بأخاديد التجزئة التي دأب الاستعمار على حفرها، وزادت في تعميقها حكومات الدولة الوطنية المستقلة.

2- إن الأبعاد والتناقضات التي تومئ إليها الشائيات المذكورة والتي تقدم البرهان على أنها وليدة السياق التجزيئي الاستعماري هي نفسها الأسئلة الحرجة التي يتركز حولها الجدل الثقافي والسياسي المنبعث في كثير من البلاد الإسلامية والعربية، وهي نفسها القضايا الفكرية الكبرى التي شغلت بإلحاح أدبيات الخطاب العربي والإسلامي منذ قرن ونصف. والحقيقة الصارخة التي تواجهنا في مجال هذه الأدبيات هي مدى ما تعبر عنه من ظاهرة الانقسام في عمق الوعي الثقافي

37 - أكثر ما تتكشف هذه المعاني على سبيل المثال - خلال الأجواء المصاحبة للانتخابات السياسية البلدية في البلاد المستعمرة؛ إذ يتبين للمراقب أن سكون المجتمع الظاهري يقف في الحقيقة على بركان من التناقضات والعصبية المكبوتة.

الذاتي للأمة، ففي كل موقف يتخذ من الحضارة أو من الغير أو من الوحدة أو من الدين أو من الحكم أو من الماضي أو من المستقبل حيث يقفز مشكل التجزئية أو مشكل الثنائية (ثنائية العصري/التقليدي) ليصبح هاجسا محوريا للتفكير المحلي في المشكلات المعروضة، ومصدرا باعثا لحواراته الأساسية. ومما يزيد في حدة هذا المشكل وخطورته أنه لا يبدو للممتبع مشكلا عارضا مرتبطا بظروف الاستثناء التاريخي (ظروف سيطرة الغالب) بل ينزل بثقله على الساحة الثقافية كمشكل حقيقي ذي أسس بنيوية، له ثوابته العقائدية وقناعاته الفلسفية، ومؤسساته التعليمية والدعائية، التي تضمن إنتاجه وإحياءه.

لكن هذا المدد يبقى دون مستوى وحجم المدد الكبير الذي تقدمه مؤسسات الإمبريالية الثقافية لتعميق هذا المشكل وتفريع امتداداته وتداعياته، وتوظيف نتائجه؛ فلا تنفك هذه المؤسسات بها تملكه من وسائل الضغط والتأثير والإنتاج القيمي والثقافي، وبما تحتكره من صناعة الاتصال وتقنياته، ومن خلال ما تمارسه من هيمنة اقتصادية وسياسية، تجود بمختلف أشكال الدعم المعنوية لتزكية مشكل الثنائية والازدواج في أطر التفكير واللغة والرؤية والمنهج، وما ذلك إلا لأن استمرار هذا المشكل وتكريسه وما ينجم عنه من تداعيات موضوعية يعني استمرار حالة التجزئة، وبالتالي استمرار اتجاهات الصراع والتشردم بين القوى الاجتماعية الحية في الأمة.

ونتيجة لهذه السياسة الاستعمارية يتخذ الجدل الدائر حول القديم والحديث، والهوية والعصرية، والتأصيل والتحديث، والماضي والحاضر - وهو جدل طبيعي مثار لدى كل الثقافات - في المنطقة الإسلامية والعربية صبغة التهالك الذاتي والمستمر بين معسكرين متعارضين يبغى أحدهما إقصاء الآخر، بل يتردى الأمر أحيانا إلى درجة التقاتل التناحري بين مرجعيات وذهنيات ونخب، يكتسي في الظرف الراهن صورة صراع بل حرب بين "الأصولية" والتغريب³⁸. وتكفي المظاهر الرئيسية السائدة في معظم البلاد الإسلامية للدلالة على انشراح الوعي المحلي وذهاب إجماعه وريحه، وعلى أزمة الوعي المناهجي الكلي بالمشكلات والأسئلة المطروحة، ذلك أن جملة من هذه الإشكالات والأسئلة التي شغلت طويلا الفكر الإسلامي والعربي في مستهل هذا القرن، لم يتم تحريرها وصياغتها على أساس الأخذ بشرائط النظر الصحيح والمنهجية العلمية في التناول والمعالجة، ولا على أساس تحكيم عقائدات الجماعة واستشرافاتها المستقبلية ومعاييرها الحضارية المستقلة...

38 - محمد عابد الجابري: "الثقافة العربية ومسائل الاستقلال الثقافي" المستقبل العربي، ع 174، ص: 11، بيروت 1993/8.

وبسبب هذا التخبط نشطت في الساحة الفكرية الإسلامية والعربية اتجاهات التوفيقية والانتقائية ومنهجيات "إما.. وإما" الخاضعة لمنطق الثالث المرفوع (!) ومن هنا، دعوة ثلة من الباحثين³⁹ إلى إعادة النظر في بناء قضايا الفكر الإسلامي العربي الحديث، وضرورة تأسيس قراءات نقدية جديدة للواقع الإسلامي مجتمعا وتاريخا ومعرفه، وفرضية إدراك مشكلات الواقع الإسلامي المعاصر وظواهره على أساس الوعي المنهجي الذي يشكل أسلوب التناول المنهجي الشمولي للواقع أحد مستوياته ومقوماته.

ويبدو لي أنه من أهم شرائط حضور هذا الوعي النوعي الفاعل تحقيق شرط الاستقلال الثقافي أولا، ومعنى ذلك تحرير الإرادة الذاتية، وتنقية الوعي المحلي من دخن الأطروحات الاستعمارية، وتحليله من المسبقات التي أنزلها التيار الحداثي المتغرب منزلة المسلمات، ثم مراجعة الردود والإشكالات جميعها بالبحث في أسسها المعيارية وملابساتها التاريخية؛ على أن تقصد هذه المراجعة التفريق بين ما هو "مشكل جوهري حقيقي" وبين ما هو "مشكل مزيف" قصد به التغليب والمغالطة.

39 - الدعوة إلى أهمية الوعي المنهجي للواقع الإسلامي المعاصر، وإعادة تركيب مشكلاته وصياغة ظواهره، غدت ضرورة أكيدة في خضم اتجاهات "غياب الوعي" و"الوعي المنشق" و"الوعي المستعار"، وتيارات التكسب الثقافي التي باتت ضربة لازب لساحتنا الفكرية في العقود الأخيرة. انظر نماذج من الدراسات المعاصرة تتمثل هذا الوعي المنهجي المطلوب، وتلح على الاجتهاد في مجاله نحو: برهان غليون: اغتيال العقل (فصل الرؤيا التجزئية) - مالك بن نبي: سلسلة مشكلات الحضارة - منير شفيق: الإسلام في معركة الحضارة - طه جابر العلواني: الأزمة الفكرية المعاصرة، محمد القاسم أبو الحاج أحمد: العالمية الإسلامية الثانية - نازك الملائكة: التجزئية في المجتمع العربي - المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى - وغيرهم.

مقولات خاطئة حول الإمامة

د. سعيد شبار
رئيس المجلس العلمي
بني ملال

توطئة :

كان موضوع الإمامة عبر تاريخ الأمة محط جدال ونقاش بين مختلف مكوناتها، وما ذلك إلا لارتباط "الإمامة" بقضايا الناس الدينية والدنيوية و تدبيرها لشؤونهم العامة كما هو واضح وجلي من سائر التعاريف التي أعطيت لهذا المفهوم من منظور سياسي أو من منظور شرعي.

ولأن هذا المقال سيركز بالأساس على بعض المقولات الخاطئة التي لازمت هذا المفهوم في تاريخ الأمة الماضي و في حاضرها كذلك ، فإننا سنتجنب الخوض في تعريف هذا المفهوم وفي أدلته الشرعية الموجبة له وما يتعلق بذلك كله، إلا ما كانت له علاقة بموضوعنا.

وسنركز حديثا على طائفة من هذه المقولات محاولين إبراز خلفياتها المذهبية العقيدية أو السياسية، وآراء علماء الأمة فيها ومدى مجانبتها للإجماع وخروجها كلا أو جزاء عن الإطار الشرعي وما يوجبه في هذا السياق، وذلك من خلال تأويلات بعيدة عن روح الشرع ومقاصده أو اجتزاء وبتر للنصوص، دون إدراك لسياق ورودها أو لنصوص أخرى أعم وأصح تراعي اعتبارات أخرى لم يراعها أصحاب تلك المقولات ما دامت نظرتهم موجهة في إطار طائفي أو حزبي معين لا ينظر إلى مصالح الأمة ككل ولا إلى اختياراتها التاريخية، ولا إلى مقاصد وثمار الأمن والسلم والاستقرار التي نتجت عنها، من غير أن يحول شيء من ذلك دون مطالب الإصلاح والتجديد المشروعة والتي هي حاجة دائمة وملازمة لتدين الإنسان وحياته الاجتماعية المتطورة زمانا ومكانا.

ونذكر هنا نصا قيما لابن خلدون ذكر فيه، من أجل استتباب الأمة في الاجتماع الضروري للبشر، أنه يجب "أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم، وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها

ولا يتم استيلاؤها «سنة الله في الذين خلو من قبل»¹. فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصائرها كانت سياسة عقلية. وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا والآخرة. وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط. فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء، والله تعالى يقول: «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون»². فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم «صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض»³. فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة و معاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني فأجرتة على مناهج الدين ليكون الكل محوطا بنظر الشارع»⁴.

ولنبداً هذه المقولات من بدايتها التاريخية في الأمة، على أساس أننا ننتقل في التقويم من منطلق إجماع الأمة سلفاً عن خلف واختيارات هذا البلد التي هي جزء من هذا الإجماع المبني على نصوص القرآن والسنة والأدلة العقلية والتاريخية المعصدة.

1. تمهيد في اعتبار الإمامة عند الأشاعرة وأهل السنة عموماً من الفروع والقضايا المصلحية:

ابتدأنا بهذا الاعتبار من أجل دفع ما قد يتبادر للذهن من توهم التقليل من أهمية وشأن الإمامة عند علماء الأمة، ودفعاً كذلك لما تروج له مذاهب خارج الاختيار السني أو ذات غلو وتطرف معين في موضوع الإمامة.

فاعتبار أهل السنة ذاك محكوم بتقسيم وتصنيف معين للأحكام الشرعية، إذ منها ما يتعلق بالعمل ومنها ما يتعلق بالاعتقاد. وما يتعلق بالعمل بمجاله الفروع المتجددة لارتباطه بقضاياهم ومصالحهم الاجتماعية وهذا مجاله الفقه. أما ما يتعلق بالاعتقاد الذي أغلبه إن لم يكن كله قضايا إيمانية كلية ثابتة ومقررة فمجاله العقيدة أو ما اصطلح على تسميته بأصول الدين.

وما دامت الإمامة "عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسول ﷺ في إقامة قوانين الشرع وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة"⁵ وأنها "موضوعة لخلافة النبوة في

1 - سورة الأحزاب، الآية: 38.

2 - سورة المؤمنون، الآية: 116.

3 - سورة الشورى، الآية: 50.

4 - مقدمة ابن خلدون، ج 2/ ص 562 - 563.

5 - أبكار الأفكار، الأمدي، ج 5/ ص 121.

حراسة الدين وسياسة الدنيا"⁶. وما دامت الخلافة هي "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"⁷.

إذا كان الأمر كذلك كان مجال الإمامة الفقه وليس العقيدة. وهنا يمكن طرح سؤال، لم تم إدراجها ضمن مباحث العقيدة وعلم الكلام في كتب العقائد وأصول الدين؟ حيث نجد جواباً لذلك عند كثير من العلماء، إذ يعززون الأمر إلى ما طرأ من بدع وما شاع من مفاصد اعتقادية تستوجب نقداً وتقويماً في هذا السياق، ثم درج التأليف على هذا السنن بالقصد التبعي وليس بالقصد الأصلي. نقرأ في ذلك للعلامة سعد الدين التفتزاني قوله: "الإمامة هي رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا. خلافة عن النبي ﷺ وأحكامه في الفروع. إلا أنه لما شاعت من أهل البدع اعتقادات فاسدة مخلة بكثير من القواعد أدرجت مباحثه في علم الكلام"⁸. وللإمام عضد الدين الإيجي قوله عن الإمامة: "ليست من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين. إذ نصب الإمام عندنا واجب على الأمة سمعاً. وإنما ذكرناها في علم الكلام تأسياً بمن قبلنا. إذ جرت العادة من المتكلمين بذكرها في أواخر كتبهم للفائدة المذكورة..."⁹.

إذن فاعتبار الإمامة قضية مصلحة أو فروعية لا يحمل معه أي تنقيص من مقامها، بل يضعها في الإطار العملي والوظيفي السليم والصحيح.

وكل تعريفات العلماء تربط في منصب الإمامة بين مجالي الدين والدنيا، بحيث يكون تلازمهما تلازماً وجودياً ووظيفياً على حد سواء. فالدين يزود الدنيا بالمعنى والقصد من الوجود والحياة ابتداءً وانتهاءً. والدنيا مجال تدين الإنسان أي حركته بالدين، والذي يحفظ الدين ويسوس الدنيا به، الإمام. وقد قيل: "الدين أساس والسلطان حارس. والدين والسلطان توأمان"¹⁰.

2. في وجوب الإمامة :

أما وجوبها وفرضيتها فهذا أمر لا خلاف فيه إلا من شذ عن الإجماع ممن لا عبرة برأيه، فعند الماوردي "عقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأصم". وأنها "إذا ثبت

6 - الأحكام السلطانية، الماوردي، ص 5.

7 - مقدمة ابن خلدون، ج 563/2.

8 - شرح المقاصد، التفتزاني، ج 232/5.

9 - المواقف بشرح الشريف الجرجاني، ج 3/ ص 578.

10 - المواقف، الإيجي، 398/3.

وجوبها ففرضها على الكفاية كالجهاد وطلب العلم، فإذا قام بها من هو من أهلها سقط، ففرضها على الكفاية¹¹.

وعند ابن خلدون: "إذ تقرر أن هذا النصب (نصب الإمام) واجب بإجماع، فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل الحل والعقد، فيتعين عليهم نصبه. ويجب على الخلق جميعاً طاعته لقوله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾¹²¹³. وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "سيليكم بعدي ولادة، فيليكم البر ببره، ويليكم الفاجر بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق، فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم"¹⁴.

ولا عبرة هنا كما تقدم بمن شذ "فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع، منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم. والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء أحكام الشرع. فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه، وهؤلاء محجوجون بالإجماع"¹⁵.

واضح بطلان هذا الزعم، إذ لا يمكن للأمة أن تقوم على العدل وتنفيذ الأحكام من تلقاء نفسها، فضرورة الاجتماع البشري والطباع البشرية المختلفة - حسب ابن خلدون نفسه - باعثة دوماً على الاختلاف والتنازع. ولا يستتب الأمر إلا بسلطان إمام يقوم على رعاية المصالح وسياسة ذلك الاجتماع.

وإن كان الاختلاف في وجوبها هل هو بالشرع أم بالعقل، فإن النظر في أدلتهم ينتهي إلى أنها تجب بهما معا لتوحد هذه الأدلة في نفس مطلب الوجوب ومبرراته. فهي واجبة بالعقل "لما في طبع العقلاء من التسليم لزعمهم يمنعهم من التظلم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، ولولا الولاية لكانوا فوضى مهملين وهمجا مضاعين" كما قال الماوردي¹⁶. وكذلك "لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين، ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض، فما لم يكن الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم" كما قال ابن خلدون¹⁷.

11 - الأحكام السلطانية، ص 5.

12 - سورة النساء، الآية: 95.

13 - المقدمة، ج 2 ص 567.

14 - أخرجه الدارقطني في السنن والطبراني في الأوسط.

15 - المقدمة، ج 2/ ص 555.

16 - الأحكام السلطانية، ص 5.

17 - المقدمة، ج 2/ ص 565.

وكل ما تم ذكره مما يوجب الإمامة عقلا، يؤيده الشرع وينص عليه فلا تعارض. وهذا ما كان عليه إجماع الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ في السقيفة من بيعة أبي بكر ثم من بعده عمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم جميعا) وكذا في كل عصر بعد ذلك.

وأضاف الذين أوجبوها بالشرع أولا أن "الإمام يقوم بأمور شرعية قد كان محجوزا في العقل ألا يرد التعبدها، فلم يكن العقل موجبا لها، وإنما أوجب العقل أن يمنع كل واحد نفسه من العقلاء عن التظالم والتقاطع، ويأخذ بمقتضى العدل في التناصف والتواصل، فيتدبر بعقله لا بعقل غيره"¹⁸.

3. انعقاد الإمامة :

ذهب جل العلماء إلى أن الإمامة تنعقد من وجهين، أحدهما باختيار أهل الحل والعقد، والثاني بعهد الإمام من قبل. أما انعقادها باختيار أهل الحل والعقد فقد اختلف العلماء في عدد من تنعقد به الإمامة منهم على مذاهب شتى، فقليل: جمهور أهل الحل والعقد. وقيل: خمسة يتابعهم الناس... وأما انعقادها بعهد من قبله (أي من قبل الإمام السابق) فهو مما انعقد الإجماع على جوازه، ووقع الاتفاق على صحته لأمرين عمل المسلمون بهما ولم يتناكروهما: أحدهما أن أبا بكر رضي الله عنه عهد بها إلى عمر رضي الله عنه، فأثبت المسلمون إمامته بعده، والثاني أن عمر رضي الله عنه عهد بها إلى أهل الشورى فقبلت الجماعة دخولهم فيها وهم أعيان العصر اعتقادا لصحة العهد بها، وخرج باقي الصحابة منها¹⁹.

يؤيد هذا أيضا ما ذهب إليه ابن حزم الظاهري عندما قال: "عقد الإمامة يصح بوجوه، أولها وأفضلها وأصحها أن يعهد الإمام الميت إلى إمام يختاره إماما بعد موته وسواء فعل ذلك في صحته أو في مرضه أو عند موته. إذ لا نص ولا إجماع على المنع من أحد هذه الوجوه، كما فعل النبي ﷺ بأبي بكر وكما فعل أبو بكر بعمر، وكما فعل سليمان بن عبد الملك بعمر بن عبد العزيز. وهذا هو الوجه الذي نختاره ونكره غيره لما في هذا الوجه من اتصال الإمامة وانتظام أمر الإسلام وأهله، ورفع ما يتخوف من الاختلاف والشغب مما يتوقع في غيره من بقاء الأمة فوضى ومن انتشار الأمر وارتفاع النفوس وحدوث الأطماع"²⁰.

18 - الأحكام السلطانية، ص 5.

19 - الأحكام السلطانية، ص 11.

20 - الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ج 5/ ص 16.

قال: "والوجه الثاني إذا مات الإمام ولم يعهد لأحد أن يبادر رجل مستحق للإمامة فيدعو إلى نفسه ولا منازع له، ففرض على أتباعه الانقياد لبيعته والتزام إمامته وطاعته كما فعل علي إذ قتل عثمان رضي الله عنهما... والوجه الثالث أن يصير الإمام عند وفاته اختيار خليفة المسلمين إلى رجل ثقة أو إلى أكثر من واحد كما فعل عمر رضي الله عنه عند موته²¹.

وللعلماء بعد هذا تفاصيل في شروط البيعة وانعقادها وواجبات الإمام تجاه الأمة، والأمة تجاه الإمام تنظر في مظانها.

لكن المتأمل في انعقاد الإمامة من خلال ما تقدم، يلحظ أن ثمة حرصا على أمرين مهمين:
أولهما: عدم ترك الفراغ أو خلو الوقت من الإمام، لما يمكن أن يترتب على ذلك من مفسد وأضرار.

الثاني: أن أشكال التعيين أو التفويض يعقبها إجماع ورضا الأمة، إذ قبلت الأمة ما تم من بيعة السقيفة، ورضيت لجنة مشورة عمر، كما رضيت تعيين أبي بكر لعمر وهكذا...

فهذه أوجه كما يستفاد منها أن شكل النظام ومسطرته اجتهادية، يستفاد منها كذلك أن الإجماع كان حاسما فيها لسد مداخل النزاع والفرقة والفتنة، التي أطلت برأسها فيما بعد. بل والتي قال عنها عمر: "لقد كانت بيعة أبي بكر فلتة، فلا ترجعوا إليها"، لكنها فلتة حسمها الإجماع فيما بعد، ولا حجة لكثير من الدعاوى والتأويلات المغرضة التي ركبت مركب التشكيك في عدالة الصحابة والطعن في نزاهتهم، انطلاقا من اختلاف في السقيفة الذي كان تداولا شوريا حقيقيا، انتهى إلى إجماع ووحدة.

4. مواقف تاريخية خاطئة حول مفهوم الإمامة :

أ. مواقف الشيعة :

يختلف موقف الشيعة في الإمامة عن موقف أهل السنة، إذ يعتبرها الشيعة أصلا من أصول الدين ويجعلونها في باب العقائد، واجبة الإيمان والتصديق لأن الإمام حسب أغلبهم معين بالنص. يقول ابن خلدون: "ومذهبهم جميعا متفقون عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الملة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله

21 - نفسه، ج 5 / ص 17-18.

ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر، وأن عليا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها حتى جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة²².

ونصوص التعيين عندهم كثيرة، منها الواضح الجلي، ومنها المستور الخفي، وما ذهب إليه ابن خلدون هو ما يكاد يجمع عليه مؤرخو الفرق، وما تذكره أصول ومصادر الشيعة في العقائد والحديث والفقه والتفسير، وسائر العلوم التي يستقلون فيها بمصادرهم ومراجعهم.

إن إدراج الشيعة للإمامة ضمن العقائد وأصول الدين بالقصد الأول الأصلي، قد ترتبت عنه تبعات لا تقل خطورة: كالقول بعصمة الإمام، وكون مقام الإمامة عند بعضهم أفضل من مقام النبوة، وأنه لا يجوز ولا يسع جهلهم وعدم معرفتهم، وأن "من جهل الإمام فمات، مات ميتة جاهلية" وإن لم يخرج عليه. كما ذهبت طوائف منهم إلى أن علم الإمام محيط، فهو يعلم كل ما كان وكل ما يكون ولا يخرج شيء من علمه من أمر الدين ولا من أمر الدنيا. واعتدلت فرق أخرى فقالت: "الإمام يعلم كل أمور الأحكام والشريعة، وإن لم يحيط بكل شيء علما، لأنه القيم بالشرائع والحافظ لها، ولما يحتاج الناس إليه، فأما ما لا يحتاجون إليه فقد يجوز ألا يعلمه الإمام".

ووصل بعض الغلاة إلى حد القول بأنه تظهر على الأئمة المعجزات كالرسل، لأنهم حجج الله تهبط عليهم الملائكة بالوحي ولا يجوز أن ينسخوا الشرائع أو يبدلوها، وقال بعضهم يجوز لهم ذلك. ومن غلاتهم كذلك من أله عليا بن أبي طالب، وزعم أنه لم يمض بل رفع كما رفع عيسى، وقالوا برجعة بعض الأئمة على اختلاف بينهم فيهم، وأن هؤلاء الأئمة أحياء ينتظرون فرصة الرجوع... إلخ²³.

فهذه بعض أهم آراء الشيعة في الإمامة ذكرناها على وجه الإجمال من غير خوض في تفاصيل فرقههم وعزو كل قول إلى أصحابه وأوجه وأدلة اختلافهم تفاديا للطول واكتفاء بما يفي من الغرض.

22 - المقدمة، ج 2/ ص 572.

23 - انظر تفاصيل أكثر في: مقالات الإسلاميين للأشعري، ج 1/ ص 120. مقدمة ابن خلدون ج 2/ ص 573. وباقي كتب الملل والنحل... لابن حزم والشهرستاني.. وغيرهما.

ب. مواقف الخوارج :

لئن غالت الشيعة في الولاء لآل البيت حبا وتفضيلا لدرجة الخروج عن حدود الشرع ومقررات العقيدة، فإن الخوارج وهي من الفرق الأولى في الإسلام كذلك، التي نشأت نشأة سياسية ثم اتخذت لها بعد ذلك اختيارات عقدية وفقهية، قد نحت المنحى نفسه من الغلو والتشدد لكن في الاتجاه المعاكس، أي كراهة وتكفيرا والخوارج جمع خارج، وهو الذي خلع طاعة الإمام الحق وأعلن عصيانه وألب عليه، وعلماء الفقه الإسلامي يسمون من فعل ذلك وصارت له شوكة الباغي وجمعه بغاة..²⁴

وهم على خلاف الشيعة الذين يرفضون إمامة أبي بكر وعمر - ولذلك سموا روافض - ، "يثبتون إمامة أبي بكر وعمر وينكرون إمامة عثمان، رضي الله عنهم، في وقت الأحداث التي نقم عليه من أجلها، ويقولون بإمامة علي قبل أن يحكم، ويكفرون معاوية وعمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري، ويرون أن الإمامة في قريش وغيرهم إذا كان القائم بها مستحقا لذلك، ولا يرون إمامة الجائر. وحكي عن بعضهم "أنهم يقولون أنهم لا يحتاجون إلى إمام، وإنما عليهم أن يعلموا كتاب الله فيما بينهم"²⁵. وقالوا: "إن عليا رضي الله عنه كان على الحق ثم أخطأ في التحكيم، لأنه حكم الرجال مع أنه لا حكم إلا لله، ولم يقفوا عند حدود التخطئة بل قالوا: كفر علي بذلك ولعنوه وألجأوا الناس إلى لعنه..²⁶"

ومعروف رأي الخوارج في مرتكب الكبيرة أنه كافر مخلد في النار، وحملهم الناس قسرا على القول بقولهم واستباحة دماء وأموال مخالفينهم وقتلهم لكثير من الصحابة والتابعين، وما ذلك إلا نتائج طبيعية مترتبة عن مبدأ الخروج الأول عن الإمام، واتخاذهم أئمة آخرين، والخروج عن الإجماع واتخاذ آراء ومواقف شاذة ومتطرفة عن جمهور وسواد الأمة فقها وعقيدة.

5. مقولات معاصرة خاطئة حول مفهوم الإمامة:

نجد في فكرنا المعاصر امتدادا لكثير من المقولات التاريخية القديمة نصا أو معنى، يتجلى ذلك في الفكر الشيعي المعاصر رغم الجهود الإصلاحية التحريرية من أثقال الماضي والتاريخ، وفي

24 - مقالات الإسلاميين، الأشعري، ج 1/ ص 167. المحقق.

25 - مقالات الإسلاميين، ج 1/ ص 204-205.

26 - نفسه، ج 1/ ص 57، المحقق.

حركات تتبنى الفكر الخارجي بوعي أو من غير وعي، فتكفر وتحارب من غير مبرر شرعي، ولن نطيل في هذا الاتجاه لأنه نادر الوقوع والحضور في الفكر والمجتمع المغربي خصوصا، ولا يشكل تحديا واقعيا كبيرا، وإن كان الانتباه إليه والحيطه والحذر منه أمرا واجبا على الدوام.

وثمة أشكال وصور فكرية أخرى في موضوع الإمامة ووظائفها، قائمة على أساس استعارة النماذج التاريخية القديمة دون اعتبار لشرط الواقع والمعاصرة والتحديات القائمة، مع تغييب كلي لتاريخ وتطور المجتمع والنظم السياسية والترجيح الشرعي بين المصالح والمفاسد وما إلى ذلك. وأخرى قائمة على أساس الرفض والمفاصلة لكل سند ديني وعروة شرعية، لها نماذجها المستعارة كذلك من الخارج، متجاهلة كل التاريخ الإسلامي وليس بعضه، ضاربة اختيار الأمة وإجماعها عرض الحائط، لا تكاد ترى في شعارات الحرية والديموقراطية والمساواة.. إلا نفسها وحسب، وإن لم تكن تمثل في سواد الأمة شيئا.

وتلك مشكلة أخرى عندما تمارس أقلية ما على الأغلبية وعلى الأمة والتاريخ وعلى الأمن والاستقرار.. إكراهات معينة، دون أن تشعر أنها تقوم بعمل نقيض لمبدأ الحرية الذي تدافع عنه، فتكون من حيث لا تشعر موانع وعوائق أمام مشروع التحرر برمته.

6. شعارات واستعارات خارج النسق:

ترفع بعض الخطابات الإسلامية شعارات كثيرة دون خوض غمار التحقق الموضوعي بها من خلال التدافع المؤسسي الشرعي، والتي تتحول في أغلب الأحيان إلى شعارات سياسية وليست دعوية، فتفرغ كليا من مضمونها الشرعي والاجتماعي والتربوي والدعوي. ومن ذلك شعارات "الإمامة على منهاج النبوة والخلافة الراشدة" و"دولة الإسلام" و"الحل الإسلامي".. وغيرها. إذ ليس المشكل في مضمون الشعار وكونه عكس ويعكس حقائق تاريخية وشرعية، ولكن في استعارة شكل ورسم النموذج تحديدا. وفي التلويح بالشعار دون التحقق بمبادئه ومضامينه وفقه تنزيله في استحضار تام للتحديات الراهنة. الأمر الذي جعل هذه الشعارات ذات طابع تنفيري أكثر منه تبشيري، وإقصائي أكثر منه استيعابي. أي تقوم بوظائف معاكسة لما تدعو إليه أمام تيارات المجتمع الأخرى.

فالقرآن الكريم مثلا في نصوص كثيرة، تحدث عن الإمامة وعن الخلافة وعن الملك، ولم يحدد إطارا وهيكلًا لنظام سياسي معين، وإنما نص على قيم كبرى وأصول كلية: كالعدل والتوحيد والحرية

والشورى والمساواة والأمن والسلم والإصلاح وما إليها... وترك النظم والهياكل للتقدير الاجتهادي، فأياها كان أقدر على تحقيق تلك الأصول والمبادئ كان أجدر بالصفة الإسلامية.

ومثل ذلك يقال في باقي الشعارات كـ "دولة الإسلام" التي جعلها البعض مرادفاً "للدولة الدينية"، مقابل "الدولة المدنية". كما جعل شعار "الحل الإسلامي" مقابل "الحل الإنساني". هذا علماً بأن الإسلام دعوة دينية ودولة مدنية وحل إنساني، وليس له أي مشكل مع أي من تلك التقابلات التي صنعها الفكر البشري، وخصوصاً الأطروحات المتمركزة حول ذاتها، والتي تبني صرحها على حديث أو بضعة نصوص دون النظر الشمولي المستوعب لمقاصد الإسلام وفلسفته العامة. ولهذا نجد تلك المثالات التي لا تدرك وغير قابلة للتحقق كما هي، تريد أن تأخذ لها صوراً وأشكالاً تعبيرية مختلفة "كدولة داخل الدولة"، و"نظام داخل النظام" و"إمارة داخل الإمارة" و"بيعة على بيعة".. وبعبارة أخرى البحث عن الشرعية خارج الشرعية.

قريباً من هذا المعنى نجد شعارات أخرى معاكسة تقرن مفهوم الإمامة أو إمارة المؤمنين بـ "الدولة الدينية"، وتسقط تجارب وتصورات خارج النسق الإسلامي جملة وتفصيلاً، أي تتخذ لها هي الأخرى مرجعاً يتجلى في النموذج الأوروبي وصراع الدين والدولة، وهيمنة رجال الدين على كل المؤسسات فضلاً عن الامتيازات الخاصة، وادعاء العصمة وامتلاك الحقيقة، ومحاربة الفكر والعلم والاستبداد بالرأي وما إلى ذلك... هذا في مقابل "الدولة المدنية" التي تقوم على أسس ديمقراطية وعلى الحرية والمساواة.. وما إلى ذلك. إذ لا يقل التعسف في هذه المقابلة الزائفة عن نظيره في المقابلات السابقة.

فقضايا الدولة المدنية هي نفسها قضايا الدين الإسلامي الذي تصدر عنه إمارة المؤمنين، ولقد مر معنا في التجربة التاريخية تنصيب العلماء على التلازم والتعاقد المتين بين حفظ الدين وسياسة الدنيا، أو بتعبيرنا المعاصر بين الدين والدولة في مقام الإمامة العظمى أو إمارة المؤمنين، هذا مع التمييز الوظيفي الكامل والمتكامل في الأعمال والاختصاصات.

فالتدين في الإسلام عمل مدني ترعاه وتحرسه إمارة المؤمنين، والمدنية فيه ضرورة اجتماعية لا بد لها من راع وقائد يسوسها، من ثم لا خوف على اختيارات الدولة المدنية الحديثة من الإسلام عموماً ومن الإمامة خصوصاً مادامت مطالب الحرية والعدل والديموقراطية والمساواة والإنصاف والسلم والأمن وما إليها.. مطالب واحدة وموحدة بين الدين والدولة في إطارها المؤسسي المسؤول.

ولعل من عجب ما قرأنا في خضم الإصلاحات الجارية وما أتاحته من حريات الاقتراح والمشاركة قول بعضهم أننا بحاجة إلى: "إمارة مؤمنين علمانية"! نعم كذا .

فإذا كان موضوع العلمانية غير ذي موضوع في المجتمعات الإسلامية عموما وفي المغرب بشكل أخص، فلا ندري كيف تقترن العلمانية التي هي استبعاد للدين والقيم بإمارة المؤمنين التي هي حراسة لذلك الدين وتلك القيم! إلا أن يكون لهذا القول باطن وتأويل يجعل من "إمارة المؤمنين" شكلا صوريا لا علاقة له بتدبير الدين والدنيا، أو يدبر الدين بمعزل عن الدنيا، وتلك خاصية كانت لمجتمعات وديانات ذات طبيعة مختلفة تماما عن ديانة الإسلام وبلاد الإسلام.

ولقد تناسى هؤلاء، أو جلهم، أن شرعية الإمارة والإمامة من الدين لا من هذا التيار أو ذاك، وأن تجذرهما في تاريخه وتجربته متين، وأن علاقتها مع الأمة والشعب كله لا مع تيار ضد آخر، وذلك من خلال عقد البيعة الشرعي، وأن مجال عملها واشتغالها قضايا الدين والدنيا على حد سواء.

7. خلاصات واستنتاجات :

نخلص مما تقدم إلى أن للمغرب مكاسب تاريخية عريقة ومهمة ميزته وجعلت منه صاحب خصوصية واستثناء في كثير من القضايا والموضوعات. فاخياراته الدينية خصوصا والتي تعاقب عليها حكامه وعلماءه منذ قيام دولة الإسلام فيه، سواء تعلق الأمر بالعقيدة الأشعرية أو المذهب المالكي أو التصوف السني، أو إمارة المؤمنين، هي اختيارات ذات طابع وسطي معتدل، واستيعابي منفتح، وتطوري متجدد... قدر لها أن تكون مجتمعة في هذا البلد بهذا النسق التكاملي، ولا تكاد توجد في غيره إلا مفردة أو بصورة صراعية تقابلية وليس تكاملية.

ومن هذه الخصوصية والاستثناء المغربي كذلك في مشروع الإصلاح الديني والديني، ذلك التلاحم بين القمة والقاعدة وانخراط الأمة الكامل في ورش الإصلاح. إذا غالب فشل مشاريع الإصلاح القديمة والحديثة أن تقوده نخب معزولة عن قاعدة الشعب وجمهور الأمة وقناعاتها، أو تقوده طوائف من هذا الجمهور خارج نطاق الشرعية والقانون. فينقلب ورش الإصلاح حينها إلى حلبة من الصراعات وتصفية الحسابات. لكن عندما تلتحم فيه القمة بالقاعدة وفق قناعات وهموم مشتركة وإخلاص وصدق متبادل.. فإن فرص النجاح تكون وافرة أكيدة من غير شك.

فتلك خصوصية تميز التجربة المغربية في مجال الإصلاح الديني بقيادة إمارة المؤمنين وشراكة كل الفاعلين في هذا القطاع، وفي المجال السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والإعلامي...

وغيره بقيادة الملكية الدستورية وإمارة المؤمنين على حد سواء في سياق الوحدة والتوحد في رمز البلاد من خلال منصب الإمامة كما سلف. والذي يبقى دائما حماية للدين وسياسة للعالم، من داخل تصور إسلامي منفتح ومتنور يراعي أول ما يراعي الحقوق والحريات ومشاريع التنمية والتعمير التي يشترك فيها مع مختلف التجارب الإنسانية مع إبقائه على كامل خصوصيته وتميزه وتفرد، إذ ذاك مصدر قوته وعطائه.

وكل ذلك وفق مخططات إصلاحية متدرجة على الفاعلين الانخراط في أورشها المفتوحة إذ لا مجال ههنا للإصلاح والتغيير بالطفرة والانقلاب وحرق المراحل.. فذلك أمر مخالف لسنن التغيير نفسها في المجال الاجتماعي الإنساني كما في المجال الكوني الطبيعي. «فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا»²⁷.

27 - سورة فاطر، الآية: 44.

من أعلام تافيلالت: المولى الحسن الشريف¹ (الداخل) حياته وآثاره

ذ. الحبيب عيادي

باحث، الرشيدية

تعد منطقة تافيلالت، منطقة تمتاز بخيراتها وبركاتها في أرضها ومائها وساكنتها عبر تاريخها العريق قبل أن يدخلها الداخل، قال ابن بطوطة: "ليس مدينة في الدنيا أفضل منها، لما أعطيت من البركة في الشار والزرع، فأهلها يزرعون الزرع ويحصدونه ويتركون جذوره قائمة، فإذا وسمه الماء نبت ثاني مرة، وثالث مرة من غير بذر"²، وقال الفضيلى: "هي قاعدة بلاد المغرب قبل فاس ودار الملك منه"³.

أما عن أهلها، فلم يتقدم لهم كفر، ويغلب عليهم التواضع والسكينة والوقار وطلب العلم والأدب⁴. ويكفيها شرفا - أي سجلها - أنها "أول بلاد درس العلم بها بالمغرب"⁵ ذكر عياض في ترتيب المدارك أن أحد الأعلام بسجلها سماء، أخذ عن الإمام مالك بالمدينة ورجع إليها، ودرس العلوم بها، وبقيت مأوى الصالحين والعلماء والأمرأ⁶.

واستمرت على مر العصور والأزمان عامرة آهلة بالعلماء والصلحاء والأخيار. وقد حل مدينتها العظمى السيد الحسن القادم وهي في نهاية عمارتها⁷.

1 - انظر ترجمته في نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير اليفرنى ص 287 - الاستقصا للناصرى 6-4/3. الحياة الأدبية لمحمد الأخضر 66-67. سجلها وإقليمها للحافظى 163. الدرر البهية للفضيلي 86/1. الأنوار الحسنية للمدغري العلوي...

2 - نقلا عن الفضيلي في الدرر البهية ج. 1، ص. 96.

3 - نفسه، ج. 1 ص. 96.

4 - نفسه، ج. 1 ص. 96.

5 - الدرر البهية 96/1.

6 - الدرر البهية، ج. 1، ص. 96.

7 - الدرر البهية، ج. 1، ص. 96.

• دخول العلويين لسجلماسة:

تتنسب الأسرة العلوية الشريفة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وشرفها لا نزاع في صراحته، ولا خلاف في صحته عند جميع المغاربة، يقول اليوسي: "إن شرفها مقطوع به فهو بصحته كالشمس الضاحية"⁸.

ويرتبط دخول العلويين الحسنيين إلى منطقة المغرب الأقصى، بالحسن الشريف المعروف في المصادر التاريخية التي أرخت له بالحسن القادم أو الداخل، لكونه أول من دخل أرض سجلماسة من الشرفاء، قادما إليها من أرض الحجاز من ينبوع النخيل خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري، أو أوائل المائة السابعة 1301م⁹، أو إبان حكم الدولة المرينية¹⁰، وهو ما يؤيده الحافظي بقوله: "دخل الشرفاء الحسنيون منطقة سجلماسة في أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي"، قال الشيخ العلامة سيدي إبراهيم بن هلال في "مناسكه": "أجداد شرفاء بلدنا سجلماسة الذين نزلوها أوائل الدولة المرينية، قال الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر: وذلك سنة أربع وستين وستمائة، وهذا التاريخ أخذ من الشجرة الحسنية التي أتى بها السيد أبو إبراهيم العمري الهلالي من ينبع النخيل، وقيل في عهد دولة عبد الواحد الموحي المخلوع في الفترة الثالثة بعد ستمائة، والصحيح الأول، وعليه فيكون ذلك في عهد دولة يعقوب المنصور المريني"¹¹.

قال الناصري معلقا: "وخبر ابن طاهر هذا هو أصح ما ينقل في كيفية الدخول ووقته¹²، لذلك فإن مقالي هذا يهدف بالأساس إلى معالجة دخول الأشراف إلى سجلماسة، وأسباب هذا الدخول، هل كان مقصودا لذاته أم كانت من وراءه أهداف وأغراض أخرى، ثم التعريف بشخص الحسن القادم المعروف بالداخل، وشخصيته التي لا نكاد نعرف عنها إلا النزر اليسير من المصادر التاريخية، وعن طريق الروايات الشفهية التي لا تستند إلى الدليل العلمي الأكاديمي، مع أن العامة تعرفه باسم ضريحه المشهور به بمدينة الريصاني قرب قصر كرينفود التابع لباشوية مولاي علي الشريف. والحق أنه علم من أعلام تافيلالت خلف إرثا علميا لا يستهان به، وهو أصل وبذرة الأشراف العلويين الحسنيين بالمغرب وهو الجدل الثاني للمولى علي الشريف.

8 - أبو علي اليوسي 31/1، المجالس العلمية السلطانية ص 66.

9 - الحياة الأدبية لمحمد الأخضر 66 وعند الناصري أواخر المائة السابعة.

10 - المغرب في عهد العلويين الأوائل 26.

11 - حسن حافظي علوي: سجلماسة وإقليمها، ص. 126-163.

12 - الاستقصا 4/3.

• أسباب دخول المولى الحسن الشريف إلى تافيلالت:¹³

تذكر المصادر التاريخية تعدد الروايات بشأن بواعث قدوم الحسن الداخل إلى المغرب وبالأخص منطقة تافيلالت، ومن هذه الروايات ما يلي:

أولاً: أن إبراهيم العمري الهلالي السجلماسي، أمير ركب الحج المغربي، اجتمع بينوع النخيل بالحجاز في إحدى مواسم الحج، بالسيد الحسن المذكور، وكانت سجلماسة يومئذ خالية من الأشراف، فجعل يرغبه في القدوم مع الركب المغربي إلى سجلماسة، ويحسن له موطنها، ويزين له الإقامة بالمغرب، إلى أن استماله، فأجمع السير معه، وقدم الحجاج المغاربة به مع ركبهم إلى المغرب ورغبوه في القدوم والمكوث بسجلماسة¹⁴.

ثانياً: أن أهل سجلماسة لم تكن تصلح الثمار ببلادهم، ومرد ذلك في نظرهم إلى خلو بلدهم من الأشراف، فذهبوا إلى الحجاز بصدد أن يأتوا برجل من أهل البيت الشريف يتبركون به، ويستدرون الخير بفضلهم فأتوا بالحسن المذكور، فحقق الله به رجاءهم، وأصلح ثمارهم، حتى عادت بلادهم هي هجر¹⁵ المغرب.

ثالثاً: الرواية الثالثة تقول: إن الأشراف من آل إدريس رضي الله عنه كانوا قد تفرقوا ببلاد المغرب وانقسم نظامهم واستولى عليهم القتل والصغار من أمراء زناتة ومكناسة وغيرهم، في عهد موسى بن أبي العافية المكناسي وغيرهم، فقل الشرف بالمغرب، وأنكره كثير من أهله حقناً لدمائهم فلما طلع نجم الدولة المرينية بالمغرب أكبروا الأشراف ورفعوا أقدارهم واحترموهم، ولم يكن ببلاد سجلماسة أحد من آل البيت الكريم فأجمع رأي كبرائهم وأعيانهم أن يأتوا بمن يتبركون به من أهل ذلك النسب الشريف فقالوا إن بلاد الحجاز هي مقر الأشراف، فذهبوا إلى الحجاز وجاءوا بالحسن الداخل¹⁶.

رابعاً: إن أهل سجلماسة لما طلبوا من المولى قاسم بن محمد أن يبعث معهم أحد أولاده، وكان يومئذ أكبر شرفاء الحجاز ديانة ووجاهة، اختبر من أولاده الثمانية من يصلح لذلك، فكان يسأل الواحد منهم بعد الآخر، ويقول له من فعل معك الخير فما تفعل معه أنت، فيقول الخير، ومن فعل

13 - ينظر في هذا نزعة الحادي لليفرنى ص 289-290. روضة التعريف ص 21-22 محمد بن الطيب القادري نشر المثاني 89.88/2 تاريخ الدولة السعيدة الضعيف 51. الدرر البهية للفضلي. 84-81/1. الحلل البهية 212-211/1 الدر السني 52-51 للقادري، المدغري، الأنوار الحسنية ص 27، الإشراف لمحمد الطالب بن الحاج 3/2.

14 - الحلل البهية 211/1.

15 - هجر: مكان قرب المدينة المنورة، يضرب به المثل في جودة التمر وكثرته انظر المغرب زمن العلويين الأوائل ص 27.

16 - الحلل البهية 211/1 الاستقصا 4/3، نزعة الحادي 290.

معك الشر يقول الشر، حتى وصل المولى الحسن فقال له أفعل الخير مع الذي فعل في الخير وأفعل الخير مع من فعل في الشر حتى يغلب خيري شره، فاستنار وجه مولانا القاسم وتهلل فرحا به، ودخلته أريحية هاشمية ودعا له بالبركة فيه وفي عقبه، فأجاب الله دعوته¹⁷.

خامسا: كان قدومه إلى المغرب بدعوة من أهله تبركا به، ورغبة منهم في تكوين دولة شريفة، تجتمع عليها كلمة المغاربة، وبتطوع منه لأجل الإصلاح والدعوة إلى الله والذود عن حرمان الإسلام. وكذا العمل على استرجاع حقوق آل البيت في الخلافة ورد اعتبارهم بتأسيس دولتهم، وبالتالي لتطهير البلاد من الغزاة النصارى¹⁸.

سادسا: في منتصف القرن السابع الهجري 13 ميلادي، ذهب جماعة من أعيان سجلماسة إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج لاستقدام أحد الأشراف العلويين قصد الاستعانة به في فض النزاعات السياسية والقبلية وفي حل الأزمات الاقتصادية بالمنطقة¹⁹.

سابعا: وهي رواية واهية لا رأس لها ولا ذنب كما أجمع عليها أهل التحقيق وهي مشتهرة على الألسنة. أنهم وزنوه لأبيه بالمال أو بالذهب مقابل قدومه مع ركب الحجيج²⁰.

هذه مجمل الروايات التي وردت بشأن قدوم الداخل لتافيلالت بالمغرب، والتي يمكن فهمه منها أن الحسن الداخل قدم إلى سجلماسة لأهداف ومزايا نبيلة وأنه من شرفاء أهل الحجاز استوطن سجلماسة فبارك الله شأنه وأعماله.

• من هو الحسن الداخل:

✓ نسبه ومولده:

هو الحسن الداخل بن قاسم بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ²¹.

17 - الحلل البهية 212/1.

18 - نزهة الحادي 58-59 المغرب عبر التاريخ 17/3.

19 - عمران سجلماسة 456/2.

20 - الحلل البهية 212/1.

21 - نزهة الحادي 288، الدرر البهية 98/1، الحلل البهية 208/1، الأنوار الحسنية 27 الدرالسني 52...

ذكر هذا النسب الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي التادلي، والشيخ محمد العربي بن يوسف الفاسي، وقال اليوسي "إن شرفهم مقطوع فهو بصحته كالشمس الضاحية"²²، ويقول ابن معن الأندلسي "ما ولي الملك بعد الأدارسة أصبح نسباً من شرفاء تافيلالت"²³.

أما محمد بن الطيب القادري فقد نظم نسب الحسن الداخل في كتابه درة المفاخر قائلاً:

علي الشريف ثم الحسن	✽	محمد حسن المستوطن
فقاسم محمد بلقاسم	✽	محمد الحسن ذو المكارم
فعابد الله أبو محمد	✽	فعرفة فحسن ذو السؤدد
ثم أبو بكر علي فحسن	✽	أحمد إسماعيل قاسم الأمن
محمد المهدي فعبد الله	✽	فالحسنان فرسول الله (ص) ²⁴

✓ نشأته وصباه:

لقد بذلت جهداً في الحصول على وثيقة أو مصدر يصرح عن نشأة الحسن الشريف وتربيته، وكيف قضى طفولته وشبابه، لكن لا نعرف شيئاً عن حياة هذا الرجل قبل دخوله واستيطانه سجلماسة، وذلك أن المصادر شحت عن البسط في تفاصيل سيرته مع أنني حاولت الاطلاع على جميع المظان التي ترجمت له، فلم نجد إلا بعض العبارات في بعض المصادر التي تقول: إنه كان ثامناً إخوته، وأنه كان أذكاهم، وتحديث عن أسرته وسبب نزوحه إلى تافيلالت مع وفد الحجاج المغاربة آنذاك.

ثم قفزت بنا المصادر إلى سجلماسة وهو ابن الستين !!، فطوت عنا بذلك سجلاً طريفاً من أحداث طفولته وشبابه، وحجبت عنا من الفوائد والتفاصيل ما يكون عوناً للباحث على تكوين ملامح واضحة من سيرته والوقوف على الروافد التي أدت إلى نزوحه لسجلماسة بوصفه شريفاً جاء لأغراض اجتماعية نبيلة. وكم كنت أود لو أنه قدم لنا بنفسه ترجمة ذاتية على غرار ما يفعله جل العلماء، لكنه فضل الإمساك، والتزم الصمت عن ذكر ماضيه مما يدفع الباحث إلى الظن أنه لم يجد في مراحل طفولته أو شبابه ما يجب لنفسه الخوض فيه أو الإشارة إليه. وعلى كل حال، فهو وإن لم

22 - نزهة الحادي 291.

23 - نفسه.

24 - نقلاً عن الدرر 88/1.

نعرف نشأته وصباه فإن الذين ترجموا له ذكروا أنه أول شريف دخل سجلماسة بلا منازع بعد الأدراسة واستوطنها ودفن بها وترك ذرية إلى يومنا هذا. هذا النسل هو الذي تقلد أمانة الشعب المغربي منذ قرون وما يزال.

ولد رحمه الله حسب المصادر التي ترجمت له بأرض الحجاز في ينبع النخيل²⁵ من أسرة تنتمي إلى الحسن والحسين أبناء فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

دخل سجلماسة وهي خالية من سكنى الأشراف على ما بها من الصلحاء والأعلام والأخيار. وأهل الوفاء، وفي وقت كان الذي بقي منهم على وشك الإتلاف وأصبح جلهم ينكر نسبه خوفا على أنفسهم وأبنائهم حقنا لدمائهم بما أوقعه ملوك زناته ومكناسة بهم. وكان دخوله إليها أواخر المائة السابعة، وكان حينئذ من أبناء الستين عاما أو نحو ذلك²⁶ وذكر ابن هلال أن دخوله كان سنة أربع وستين وستمائة 664هـ أما أبو سالم العياشي فقد ذكر في رحلته "ماء الموائد" أن دخوله كان في المائة السابعة قال صاحب الأرجوزة:

ثم أبو سالم عبد الله * أكرم به من عالم أوام
ذكر في رحلته الفاضلة * دخول ذا الأجد في السابعة²⁷

وتذكر بعض المظان أن قدومه لتلك البلاد واستيطانه بها وفرح أهلها به كان تصديقا للحديث المروي عن رسول الله ﷺ، فقد ذكر صاحب الجمان في أخبار الزمان²⁸ قائلا: "وفي دخوله أي الحسن الداخل" وإيوائه أهل سجلماسة وإكبابهم عليه تصديق للحديث المروي عن رسول الله ﷺ، قال: "روي أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أعطت جارية لها صدقة بعد وفاة رسول الله ﷺ وقالت لها امضي إلى السوق بها وقولي من يقبل صدقة بنت رسول الله ﷺ فمن قبلها منك فأنتني به، فمضت الجارية إلى السوق، وقالت من يقبل مني صدقة بنت رسول الله ﷺ، فقال رجل مغربي أنا موضع صدقة آل رسول الله ﷺ فأعطته الصدقة، وقالت له أجب بنت رسول الله ﷺ فقال لها نعم، فلما بلغ الباب سألتها من أنت فقال لها أنا رجل مغربي فقالت له من أي المغرب فقال من البربر فبكت فاطمة

25 - ينبع النخيل، حصن وقرية خصبة بالقرب من جبل رضوى الواقع بين مكة والمدينة، انظر مرصد الاطلاع 1485/3.

26 - الحلل البهية 210/1، الناصري 4/3.

27 - الحلل 210/1، الرحلة الحجازية 260/1.

28 - الشطبي نغلا عن الحلل البهية 145/1.

وقالت قال لي والدي رسول الله ﷺ لكل نبي حوارٍ وحواري ذريتي البربر سيقتل الحسن والحسين ويفر أولادهما إلى المغرب فلا يأويهما إلا البربر فيا شؤم من فعل بهم ذلك وطوبى لمن أكرمهم وأعزهم²⁹. أقول هذه الرواية أو هذا الحديث لا يمكن الركون إليه والاحتجاج به لعدة اعتبارات منها:

أن الحديث يتدئ بصيغة من صيغ التمريض "روي" وهي صيغ واهية عند علماء الحديث، ثم إن درجة الحديث غير معروفة لكون الناقل مؤرخا وليس محدثا والكتاب الذي نقلت منه كتاب تاريخ وليس كتاب حديث "الجمان في أخبار الزمان" وعليه فإن هذه الرواية تحتاج إلى مزيد تنقيح وتخريج حتى يعتد بها ويستند إليها.

وعلى كل فبفضل نبله ونسبه وعلمه، استقبل بحفاوة من طرف السجلمايين ورضوه أن يستقر بين ظهرانهم، فكان يقوم بإصلاح ذات الين بين القبائل المتصارعة ويعمل على استصلاح أشجار النخيل باعتبار دربته في هذا المجال خاصة وأن أرض الحجاز التي جاء منها كانت معروفة بنخيلها وجودة ثمرها.

✓ زواجه وأولاده:

لما استقر به المقام واطمأنت به سجلماسة وأهلها، سكن بمكان يقال له المصلح³⁰ ونظرا لما اتصف به من الخصال الجليلة تنافست قبائل أولاد المزارية، وأولاد المغراوي، وأولاد البشير، وأولاد ابن عاقلة، وأولاد المعتصم، وهم من قبائل سجلماسة فهياً الله له من نصيبه أن تزوج بنت أولاد الميزاري على كبر سنه، لمروءتهم وديانتهم وحسن سيرتهم في عشائهم³¹، وخاصة بنت الشيخ أبي إبراهيم العمري الهلالي السجلماسي³² الوافد به من أرض الينبوع.

فأنجب من السيدة المنزارية ولدا واحدا عرف بمحمد بن الحسن، الذي ورث سر أبيه في الفضل والبركة والصلاح³³ تبركا بمحمد ﷺ، ولم يخلف محمد إلا ولدا واحدا أيضا هو مولاي

29 - نزهة الحادي 292، والحلل البهية، 218/1.

30 - مكان بسجلماسة قرب قصور السيفة.

31 - انظر الدرر 111-112.

32 - نسبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أبو إبراهيم بن عمر بن مرداس بن سملال بن علي بن العلاء بن محمد بن عامر بن أبي محمد بن زيد بن عمر.

33 - الحلل البهية 214/1.

الحسن المعروف بالصغير على اسم جده، وهو الآن مدفون بسجلماسة بجانب سيدي محمد الخراز، وخلف مولاي الحسن هذا ولدين أحدهما السيد عبد الرحمان المكنى بأبي البركات وهو أكبرهما، ومن بينه أولاد أبي حميد القاطنين بوادي الرتب بالقصر الجديد المعروف حاليا، ومنهم الشرفاء الساكنون ببني زروال³⁴.

وثانيهما المولى علي المعروف بالشريف الذي منه تفرعت فروع العلويين وتكاثرت³⁵.

نشأ محمد بن الحسن بين أخواله الميزاريين نشأة حسنة حيث اشتغل منذ صباه بقراءة القرآن وطلب العلم من العلماء الأعيان، حتى صار علما شهيرا إلى أن وافته المنية وقبره بسجلماسة معروف يقصده الزوار من كل ناحية، قال في مطالع الزهراء "عاش سيدي محمد - ابن الحسن الداخل - بالمدينة المذكورة سجلماسة عيشة محمودة من كثرة التنسك والعبادة إلى أن توفي أواسط المائة الثامنة"³⁶

✓ مناقبه:

عرف المولى الحسن القادم بين أهل تافيلالت بالصلاح والتقوى وسعة الصدر، وحلوه بأوصاف ونعوت جليلة لما حباه الله به من كريم الخصال، قال صاحب الحلل البهية: "الشريف الأسنى، والملاذ الأحمى، سيد الزمان، ووالد الملوك الأعيان"³⁷، وقال أيضا "له في ضخامة القدر وفخامة الأمر منصب ومكان، ممن شهرته تلحق الخبر بالعيان"³⁸.

وقال القادري في الدر السني "من صرحاء الأشراف نسبا، وفضلائهم حسبا وكبرائهم أقدارا وعظمائهم اشتهارا"³⁹.

وقال عنه الأخضرى "كان يتمتع بسمعة طيبة"⁴⁰، وقال في عمران سجلماسة "وبفضل نبلة ونسبه وعلمه، استقبل الشريف العلوي بحفاوة من طرف السجلماسيين. ورضوه أن يستقر بين ظهرانهم، فكان يقوم بإصلاح ذات البين بين القبائل المتصارعة، وعمل على استصلاح أشجار النخيل.

34 - قبيلة جبلية تقع شمال المغرب بين كتامة ومزيات، قبائل المغرب 1/331.

35 - الاستقصا 6/3.

36 - الزكي العلوي، ص. 203.

37 - 206/1.

38 - 207/1.

39 - نقلا عن الدرر 84/1.

40 - الحياة الأدبية 66-67.

✓ بركاته وأدعيته لأهل سجلماسة:

لما حل الحسن الداخل بسجلماسة، ظهرت عليها بركات عديدة بسبب كثرة الغيث التي حلت بالبلاد بعد أن كانت جرداء قاحلة، وكان أهلها مستتين (أي مصابون بالقحط) ومن أدعيته لهم: "اللهم أنجح ثمارها وأجر أنهارها، وزدها من البركة أضعافا ومن الخيرات أصنافا، ولأهلها إذعانا للحق وإنصافا، واطو الأرض لمن بها سرى، وأضئ له ما أظلم حتى يبصر ويرى"⁴¹.

قال الفضيلي معلقا: فقبل الله دعاءه، فصلحت ثمارها، وتضاعفت بركاتها، وارتفعت عنها علتها فكان من نتيجة هذا كله:

- إصلاح ثمارها بعد أن كانت نخيلهم لا تعطي إلا بلحا لا يصلح لشيء، فحقق الله به الرجاء وأصلح الله الثمار حتى عادت تافيلالت هي هجر المغرب⁴².
- ظهر في ذريته من الآثار الحميدة والفضائل العديدة ما لا يحصى كثرة، ففيهم الملوك والأقطاب والصالحون والزهاد والعباد والعلماء الراسخون والغزاة المجاهدون...

- وفاته:

تضاربت الآراء حول وفاة المولى الحسن الداخل، فمن قائل: إن وفاته كانت في عام 676 هـ أو في 677 هـ⁴³ ومن قائل إنه توفي عام 776 هـ - 1374 م⁴⁴ ومن قائل إنه مات في تاريخ غير محددة⁴⁵ قال الأخضرى: ومات في تاريخ غير محدد بسجلماسة من إقليم تافيلالت.

وقال المشرفي في الحلل البهية: "وكانت وفاته - الحسن القادم - حسبما يستفاد مما تقدم سنة ست أو سبع وسبعمئة هجرية المرافق (1306م - 1307م)⁴⁶، أما اليفراني فقد ذكر أنه توفي في خلافة يعقوب بن عبد الحق المريني 656 هـ 685 هـ.

والصحيح ما قاله الناصري والأخضري أن تاريخ وفاته غير مضبوط لم يحفظ، لكن بالرجوع إلى المصادر التي أرخت له، وبناء على القرائن الواضحة والتي تؤكد أنه دخل سجلماسة سنة 660 هـ

41 - الدرر 84/1، عمران سجلماسة 456/2.

42 - هجر مكان قرب المدينة المنورة يضرب به المثل في جودة التمر وكثرته، انظر: المغرب زمن العلويين، محمد العمراني، ص 27.

43 - الدرر للقادري ص 51-52.

44 - الأنوار الحسنية للمدغري 26-28.

45 - الناصري 6/3، الحياة الأدبية لمحمد الأخضر 66-67.

46 - ج 213/1.

أو 664 هـ وعمره آنذاك 60 سنة. ومكث بسجلماسة 12 سنة أو 14 سنة مما يعني أن وفاته كانت حوالي 676 هـ أو 678 هـ.

يقول الفضيلي: "وقد حلها - سجلماسة - الحسن الداخل بعد 660 هـ وبقي بها 12 سنة، وقيل 14 سنة"⁴⁷.

وعلى كل فقد حفظت لنا المصادر التي أرخت له أنه لما توفي تنازع أهل سجلماسة في دفنه حتى كادت نار الفتنة أن تندلع بينهم، نظرا لعلمه وورعه وتقواه، وعظيم بركته عليهم، فاجتمع رأيهم أن يقسم أرض سجلماسة بالحبال، فقسموها أرباعا، ودفنوه في موضع يتوسط جميع النواحي الأربعة لسجلماسة بحيث لا يكون أقرب لجهة دون جهة⁴⁸، قال في الدرر "وفعلهم هذا ينبئ بشهامة قدره وفخامة أمره، وعلو منصبه، وشرف نسبه، وكرم حسبه فرضي الله عنه"⁴⁹. وصرحه مزاراة بمدينة الريصاني بجوار قصر اكرينفود ومقبرته هي بقية أهل المغرب، وليس لأهل سجلماسة مزية أعظم من هذه المزية، قال اليوسي "لولا هي - المقبرة التي دفن بها الداخل بسجلماسة، ما رفعت لهم راية اسم ولا شاع لهم ذكر، وفي ذلك أنشد قائلا:

"لولا المكارم آل المصطفى نزلوا ❀ بأرضهم آخر الزمان ما ذكروا"⁵⁰.

- العلوم التي كانت تدرس بسجلماسة زمن الداخل:

لما دخل المولى الحسن القادم سجلماسة كان معروفا بالصلاح والتقوى وسعة المعارف والعلوم وخصوصا علم البيان الذي كانت له فيه اليد الطولى حيث قام بتدريس العلم بمسجدها الأعظم، خاصة علم أصول الفقه وعلم البيان فوجد إقبالا كبيرا من طرف أهلها، حتى أنهم انكبوا عليه كإكباب أهل المغرب في الزمن القديم على المولى إدريس⁵¹.

قال الفضيلي "إن السيد الحسن القادم رضي الله عنه كان إماما عالما صالحا زاهدا ورعا، أول قادم بعلمي البيان والأصول لسجلماسة⁵²، وذاع صيت العلم والعلماء في زمنه، واشتهرت أسر

47 - انظر عمران سجلماسة 456/2، قال وصل إلى المنطقة سنة 664 هـ 1265 م وتوفي بها سنة 678 هجرية 1279 ميلادية.

48 - الحلل البهية 213/1.

49 - نفسه، 84/1.

50 - نزهة الحادي ص 290، هذا البيت من مقطعات له يهجو بها بعض فقهاء سجلماسة.

51 - الدرر 86/1-87.

52 - نفسه.

فيلالية بذلك، منهم الدقاقيون، والقطانيون والغازيون، والهلاليون واللمطيون والتجموعتيون والإبراهيميون... إذ لا تكاد تجد قصرا من قصور تافيلالت ولا قرية من قرأها إلا وفيه من العلماء والصلحاء وأهل الفضل وطلبة العلم ما لا يحصى كثرة.

ومن المجالات التي اهتموا بها في ميدان العلوم وكان لهم السبق فيه هو مجال القراءات القرآنية ومخارج الحروف، "فقد كانت لهم اليد الطولى في تجويد القرآن ومخارج الحروف وقراءات الروايات السبع والتفنن في سائر العلوم"⁵³.

وكذا الفقه والفتيا وأحكام القضاء كانوا لا يغلبون ولا يجاريهم أحد فيه ولا يباريهم، حتى كانت القضايا والنوازل تعرض عليهم من سائر أقطار المغرب.

غير أنهم كانوا متهمين بعدم الارتقاء إلى العلوم العقلية والخوض فيها قال اليوسي "غير أن علوم الصحراء - يقصد سجلماسة - قاصرة. إنما هي ما قرب من فقهيات ونحويات، ولا يرتقون إلى ذروة العلم، ولا يخوضون في لجج العلوم العقلية والنقلية"⁵⁴.

ولم يتمكنوا من الخوض في هذه العلوم العقلية، حسب رأي البعض، كعلم البيان والأصول مثلا إلا بعد أن أدخله الحسن الداخل إلى سجلماسة حيث بدأ يتعاطى لهذه العلوم ويعلمها بالمسجد الأعظم⁵⁵، لأنه كانت له فيه اليد الطولي⁵⁶، والحق أنه ليس كذلك فهي مبالغة، ذلك أن علمي البيان والأصول دخلا سجلماسة قبل هذا التاريخ، منذ القرن السادس الهجري، أدخلهما أبو الفضل ابن النحوي (ت 513هـ)، هذا الرجل الذي انتصر لأبي حامد الغزالي لما أفتى فقهاء أهل المغرب بإحراق كتب الغزالي وأمر السلطان يعقوب المنصور بإحراقها، فكتب إليه ينهاه عن فعلته الشنيعة، يقول اليوسي عن أبي الفضل ابن النحوي: "فإنه كان دخل سجلماسة فأخذ يقرئ أصول الدين وأصول الفقه بمسجد ابن عبد الملك، فرآه عبد الله بن بسام، أحد أشياخ البلاد، فقال ما يقرئ هذا الإنسان؟ فقالوا له: الأصول وكان أهل البلد إذ ذاك مقصرين في علم الرأي فقال هذا يريد أن يدخل علينا علوما لا نعرفها، وأمر بإخراجه، فقام الشيخ أبو الفضل، وقال لابن بسام، أمت العلم أمتك الله ها هنا، وأشار إلى مكانه، فاتفق أن أعلم ابن بسام بنكاح يحضر عقده في المسجد في صبيحة اليوم

53 - الدرر 87/1.

54 - رسائل اليوسي 145/1.

55 - الدرر البهية 84/1.

56 - المغرب زمن العلويين الأوائل ص 28.

الثاني، فخرج إلى المسجد سحرا، فمرت جماعة من ملوانة (قبيلة من صنهاجة) فقتلوه، فكان هذا العلم الخاص قد مات هنالك⁵⁷. وبقي الأمر على حاله حتى دخل الحسن القادم حيث بدا يلقي هذا العلم من جديد لأهل تافيلالت، فكان من نتيجة ذلك ظهور علماء أفذاذ أنعشوا الحركة الثقافية بالبلاد، خاصة علم اللغة والأصول، إلى جانب علوم الفقه والقراءات، فأصبحت تافيلالت بحق مركز إشعاع يفد إليها طلبة أهل العلم من كل الفجاج.

57 - رسائل اليوسي 146/1. التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات، ص 76.

قراءة في كتاب

ملحة مختصرة عن المقاومة المغربية ما بين 1415م و 1574 م

من خلال كتاب :

"مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة" للأستاذ حسن الفكيكي

د. محمد حمام

كلية الآداب والعلوم الإنسانية -
الرباط

يعتبر الأستاذ حسن الفكيكي من الباحثين المغاربة المختصين في التاريخ الحديث لشمال المغرب حيث كرس حياته العلمية لدراسة تاريخ المقاومة المغربية للاستعمار الإيبيري للسواحل الشمالية للمغرب، وكان من حصيلة أبحاثه العلمية إصداره للعديد من المؤلفات التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع، منها على الخصوص :

- 1- سبته المغربية : صفحات من الجهاد الوطني (1988م).
- 2- المقاومة المغربية للوجود الإسباني (1497-1859م).
- 3- سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلية المحتلة (1774-1912م).
- 4- الشريف محمد أمزيان شهيد الوعي الوطني (1908-1912م).
- 5- سبته المحتلة ذروة وعينا الوطني (1415-1912م).
- 6- مع الفقيه هو الشكري مدرسا وقاضيا ومكافحا.

ويأتي كتابه القيم، الذي قامت بإصداره المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، تحت عنوان: مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة (1415-1574)، مكملًا

للجهود السالفة الذكر، وهذه الأعمال مجتمعة تقدم إفادات تاريخية في غاية الأهمية حول المقاومة المغربية وجذور الوعي الوطني، ونشأته ومساراته ورموزه، من حين أناخ الاستعمار الإيبيري بكليله - بشكل رهيب - على هذا الجزء العزيز من المغرب في بداية القرن الخامس عشر الميلادي إلى أن تم أمر الحماية الفرنسية والإسبانية على المغرب سنة 1912م.

هذا ويشكل موضوع الكتاب الموسوم بـ "مقاومة الوجود الإيبيري بالشغور الشمالية المحتلة" مسألة أساسية في أبحاث الأستاذ حسن الفكيكي، بالنظر إلى طبيعته الأكاديمية من جهة، وإلى الفترة المدروسة من جهة أخرى. فالكتاب هو أصلاً أطروحة لنيل دكتوراه الدولة ناقشها بكلية الآداب بالرباط سنة 1991م تحت إشراف المرحوم الأستاذ محمد حجي. كما أن الكتاب يغطي فترة عصيبة من تاريخ بلادنا هي فترة انتقال الحكم من المرينيين إلى الوطاسيين ومن الوطاسيين إلى السعديين.

إن المطلع على هذا المؤلف يلاحظ الجهد الكبير الذي بذله الأستاذ الفكيكي في تأليفه وقد تجلّى ذلك في اعتماده على مصادر ومراجع عديدة، تقارب المائة والستين مصدراً ومرجعاً، ثلث منها باللغة العربية، أما ما يزيد عن الثلثين فهو باللغات الأوروبية وخصوصاً اللغة البرتغالية ثم الإسبانية ثم الفرنسية. ولعل أبرز ما يميز المصادر البرتغالية بخصوص موضوع المقاومة المغربية - مقارنة بالمصادر المغربية - كثرة وغزارة معلوماتها، ومن ثمة فهي تعوض النقص الهائل الذي تشكو منه المصادر المغربية في العديد من التفاصيل المهمة. وقد بين المؤلف ما يمكن أن تقدمه المصادر الأوروبية في هذا الصدد لإضاءة عدد من مراحل تاريخنا الوطني خلال العصر الحديث. ويكفيه فخراً أنه كشف النقاب عنها وقرأها قراءة نقدية فاحصة مكنته أيضاً من إنجاز العديد من الخرائط والجداول والبيانات التوضيحية استخلصها منها، ومن معرفته الدقيقة بجغرافية وتاريخ شمال المغرب، مما مكّنه من التعريف بالكثير من الأعلام الواردة فيها. وما هو جدير بالملاحظة أيضاً في هذا الصدد أن المؤلف بذل مجهوداً جباراً في استغلال مصادره التي فاقت إحالاته إليها تسعمائة إحالة موزعة بشكل متباين على الفصول الستة المشكلة للكتاب.

إن ما ينبغي التأكيد عليه بداية، قبل إعطاء لمحة سريعة عن المقاومة المغربية من خلال هذا الكتاب، هو أهمية المصادر البرتغالية في معرفة هذه المقاومة، وليس من المغالاة في شيء وصفها بأنها شهادة في حق صمود المغاربة عموماً وسكان شمال المغرب خصوصاً في وجه البرتغاليين وغيرهم، فهي تكشف عن التبعات السياسية والاجتماعية والعسكرية الناجمة عن الاحتلال الإيبيري للشغور الشمالية الغربية، وما تلا ذلك من معاناة السكان وردود أفعالهم وبطولاتهم، وما ترتب عن ذلك من

إذكاء جذوة المقاومة التي رصد الأستاذ حسن الفكيكي طبيعتها وأشكالها ورموزها المحلية والجهوية والوطنية في ذلك المكان.

وتأتي في مقدمة المصادر البرتغالية حوليات الإخباري (Eanes de Zurara) التي تغطي أحداثها الفترة الواقعة بين 1415-1464م. وتكمن أهميتها في كون مؤلفها كان مؤرخ البلاط احتك بأصحاب القرار داخله، من عسكريين وغيرهم، ممن عاشوا الأحداث التي تحدث عنها، أو كانوا قريبي العهد منها، إضافة إلى اطلاعه على التقارير والأرشيف الذي راكمه البلاط البرتغالي في شأنها. ولا تقل رواية دي بينا (Rui de Pina) أهمية عن حوليات دو زورارا، إذ كان هو الآخر مؤرخ البلاط وهمت أحداثها الفترة ابتداء من 1433م.

ومن جملة التآليف البرتغالية الهامة بالنسبة لتاريخ هذه الفترة ما كتبه فري جوا ألفاري (Frei Joao Alvars) وكذا كارسيا ريزيند (Garcia Resinde) وخصوصا ما دونه بيرناردو رودريكييس صاحب الكتاب الضخم الذي سماه (Anais de Arzila) أي "حوليات أصيلا"، وقد اعتمد الأستاذ الفكيكي على مصادر أجنبية أخرى لا يتسع المقام لسردها جميعا، بل أشير فقط إلى الأهمية البالغة التي تكتسيها سلسلة المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب (S.I.H.M) البرتغالية والإسبانية والفرنسية والإنجليزية التي أصدرها هنري دو كاستري، وتغطي أحداثها الفترة الواقعة بين سنتي 1532م و1574م. وعلى العموم فهناك تواصل في الزمان والمكان بين هذه المصادر الأجنبية المختلفة خلال الفترة المدروسة، مما مكن الأستاذ من بناء تاريخ المقاومة المغربية بشكل واضح سمح له بتتبع مراحلها وامتداداتها الجغرافية والبشرية.

وهكذا، وبناء على دراسته العميقة لمصادره المتنوعة، استطاع حسن الفكيكي أن يميز بين فترتين هامتين من تاريخ المقاومة المغربية للوجود الإيبيري بشمال المغرب ما بين 1415م و1574م. فالفترة الأولى تقع ما بين 1415م سنة احتلال البرتغال لمدينة سبتة وسنة 1464م سنة استقلال محمد الشيخ الوطاسي عن الدولة المرينية واستقلاله بمدينة أصيلا. أما الفترة الثانية فتبدأ حيث تنتهي الفترة الأولى وتستمر إلى سنة 1574م التي توقفت عندها هذه الدراسة، علما بأن وفاة السلطان السعدي عبد الله الغالب تزامنت خلال هذه السنة مع زيارة عاهل البرتغال لمدينة طنجة إيذانا منه بسياسة عدائية جديدة ضد المغرب انكشفت مخططاتها في معركة وادي المخازن بعد أربع سنوات من ذلك.

أ- الفترة الأولى : 1415م-1464م:

شهد خلالها المغرب أحداثا سياسية وعسكرية كبرى تمثلت في احتلال البرتغال لمدينتي سبتة سنة 1415م والقصر الصغير سنة 1458م وما نتج عن ذلك من ردود الفعل المغربي جهويا ووطنيا.

ومن التطورات التي شهدتها المنطقة عقب سقوط مدينة سبتة في يد البرتغال اختفاء ما كان يسمى بإقليم سبتة لصالح إقليم الهبط، الذي أصبحت مدينتا أصيلا والقصر الكبير تلعب فيه دورا أساسيا، ولا سيما بعد استقرار الوطاسيين بفاس سنة 877 هـ / 1472م. وبعدها قام الباحث بتحديد مكونات إقليم الهبط الجغرافية والبشرية، توقف مطولا لشرح الدواعي السياسية والاستراتيجية والاقتصادية لاحتلال المدينة من طرف البرتغاليين، الذين ما إن شعروا بالخطر المحدق الذي تشكله قبيلة مجكسة حتى بادروا إلى الهجوم على قراها الواحدة تلو الأخرى، سواء الساحلية منها أم الجبلية لكن صحوة هذه القبيلة لم تحب، فتسلح أبناءها باليقظة المستمرة خشية الوقوع في براثن البرتغاليين فكثفوا الحراسة على أراضيهم. وتفيد المعلومات التي دونها زورارا، السالف الذكر، أن المقاومة تزعمها خلال هذه الفترة المبكرة القائد محمد بن عبو المريني، الذي لم يتوان لحظة في مكاتبة رؤساء وشيوخ المنطقة. وغيرهم، لاستنهاض هممهم ومده بالعون اللازم، للوقوف ضد البرتغاليين وأطاعهم في المنطقة وما سجله نفس المصدر في هذا الصدد هو أن من بين القبائل المغربية البعيدة التي لبث نداء التضامن هذا، قبيلة جزولة الواقعة شمال الصحراء المغربية، التي بعثت بمجموعة من الفرسان يتقدمهم المرباط سيدي عبد الرحمان الجزولي. وإلى جانب محمد بن عبو السالف الذكر الذي استشهد في الحصار المقام سنة 1419م أمام سبتة، كشف عن أسماء بعض الفقهاء أبناء المنطقة ممن وهبوا حياتهم واسترخصوها من أجل تحرير بلادهم والدفاع عن كرامتها، من هؤلاء على سبيل المثال بني معدن التطواني الذي أقام رباطا للعلم والجهاد فظل يقاتل إلى أن استشهد سنة 1436م.

وتجدر الإشارة إلى أن المقاومة ضد الاحتلال البرتغالي خلال هذه الفترة كان لها بعد إقليمي ووطني في نفس الوقت، تمثل ذلك في مشاركة قبائل المنطقة في الحصارات والمواجهات المنظمة ضد سبتة، فمن هذه القبائل: بنو عروس وجبل حبيب والشاون وبنو حزمار. كما وفد على المنطقة أيضا مقاتلون من تافيلالت. وقاد المرينيون كذلك حملة تقدمها سبعة من قواد جيشهم رفقة أحد الفقهاء. وهذه الحملة ساهم فيها سكان طنجة بإيعاز من قائدها صالح بن صالح الياباني القائد السابق لسبتة. وقد حققت هذه الحملة التي بلغ عدد الفرسان المشاركين فيها ألفي فارس تقدما، حيث تمكنت من اختراق الطلعات الأولى المقامة في أحواز مدينة سبتة.

ويبدو أن الجزوليين كان لهم دور بارز في تصدر الجهاد بميدان سبتة ما بين سنتي 1420م و1424م، مدعومين بمدد أهل جبل حبيب تحت قيادة أبي علي الحسن العلمي المعروف أيضا بأبي جمعة، وواصل المجسكيون مقاومتهم بعد سنة 1424م. رغم الصعاب التي كانت تمر بها الدولة المرينية إثر مقتل السلطان أبي سعد عثمان سنة 824 هـ / 1421م، فإن السلطان عبد الحق المريني لم يأل

جهدا في المشاركة في حملة سبتة حيث جهز لها سنة 1426م وقادها أحد أقاربه يدعى أبو زكريا وكان إلى جانبه أخوه حاكم بادس ونواحيها، وقد شارك في هذه الحملة أيضا متطوعون من درعة ومن حاحة بقيادة المرباط عبد الله.

وتواصلت الغارات على ميدان سبتة ما بين 1427م و1430م، ومنها على الخصوص تلك التي نظمها في شهر شتنبر 1428م سيدي طلحة، الذي هو شيخ رابطة دينية بمنطقة أنجرة، الذي تم أسره خلال نفس الحملة وتسلم قيادة الجهاد بعده خلال نفس المدة الشيخ أحمد بن سلام بن مرزوق من شجعان المنطقة، وقد شارك في حملة سيدي طلحة، وظل يقاتل البرتغاليين إلى أن سقط شهيدا سنة 1437م، وبمقتله واصلت البرتغال توسعها في المنطقة، وكانت عينها ترنو إلى تطوان ما بين 1434م و1437م. وحينما أقدم البرتغاليون على اقتحام مدينة طنجة سنة 1437م، أظهر المغاربة عزمهم الذي لا يلين في الدفاع عن حوزة بلادهم، فتصدوا لهم بشجاعة نادرة، وهزموا الجيش البرتغالي شر هزيمة. وقد وجدها صالح بن صالح الياباني فرصة سانحة لأخذ الثأر منهم، فأحكم تنظيم المقاومة التي اتخذت طابعا وطنيا، إذ شارك فيها متطوعون من عدة أقاليم مغربية، مثل: سبتة والشاوية ومراكش وتافيلالت والغرب والريف. كما سمح هذا الانتصار الباهر للمغاربة بفرض شروطهم على البرتغاليين، ومنها بصفة خاصة: التأكيد على ضرورة استرجاع المغرب لسيادته الكاملة على مدينته السليبية، ولضمان الوفاء بهذا التعهد قبل عاهل البرتغال ترك أخيه رهينة لدى الطرف المغربي، إضافة إلى شروط أخرى. ومن الأهمية بمكان أن يعمل المغرب في إطار العلاقات الدبلوماسية والثقافية بينه وبين البرتغال الحصول على نسخة من هذا الاتفاق المغربي - البرتغالي بخصوص اعتراف البرتغال بحق المغرب في حقوقه التاريخية والسياسية والثقافية على مدينة سبتة، دحضا للمغالطات الإسبانية ونص هذا الاتفاق لا يزال محفوظا بالخرانة البرتغالية.

ومهما يكن من أمر، فقد تملصت البرتغال من تنفيذ الاتفاق بدعاوى واهية، وعرضت على المغرب تقديم فدية مالية عوض تسليم سبتة، لكن جواب صالح بن صالح الياباني كان جازما مؤداه أن لا شيء يشفي غليله سوى استرجاع مدينة سبتة. وهذا السلوك الإنساني العميق يعبر عن إخلاصه ووفائه لوطنه ولحقوقه المشروعة في أرضه، ولما تشبت البرتغاليون بالفدية المالية، أفتى العلماء بعدم جواز إطلاق سراح الرهينة البرتغالية إلا بعد تسليم سبتة، وبوفاة الأمير فرناندو سنة 1434م توقفت المحادثات بين الجانبين، وأدركت البرتغال بأن المطالب المغربية لا رجعة فيها.

وتعد الفترة الواقعة بين سنتي 1437م و1458م فترة صعبة بالنسبة للمرينيين، بسبب القلاقل التي واجهتهم سواء في الشاوية أم في ملوية وأنكاد. وقد انتهز البرتغاليون الفرصة وانقضوا على

مدينة القصر الصغير واستولوا عليها سنة 1458م. إلا أن رد فعل السلطان عبد الحق المريني كان سريعا فأرسل جيشا قام بتنسيق خطته الشراط قائد طنجة . وتمت محاصرة المدينة برا. لكن سوء الأحوال الجوية حال دون استمرار الحصار، وبعد ستة أشهر ضرب الحصار من جديد على المدينة لكنه فشل بسبب تمرد عبد الله العروسي، قائد بني عروس، بذريعة أن السلطان عبد الحق المريني تقاعس عن افتداء أحد أبنائه الذي كان أسيرا لدى البرتغال.

وكان من عواقب احتلال مدينة القصر الكبير تنظيم البرتغاليين للعديد من الغارات على أراضي قبيلتي أنجرة وبني حزمارة، التي لحق قراها وأراضيها دمار وخسائر اقتصادية وبشرية فادحة، كما واصلوا غاراتهم البرية والبحرية على طنجة أيضا.

وانتهت المرحلة الأولى من تاريخ المقاومة ضد البرتغاليين سنة 1464م بالانتصار الباهر الذي حققته قبيلة مجكسة على الهجوم الذي قاده ألفونسو الخامس ملك البرتغال.

ب- الفترة الثانية : 1464/869 – 1574/982

تميزت بطول مدتها التي زادت عن قرن من الزمان، شهدت خلالها المنطقة تطورات سياسية وعسكرية هامة، تمثلت في استقلال محمد الشيخ الوطاسي بأصيلا والهبط. غير أن أصيلا احتلها البرتغاليون سنة 1471م بعد أن غادرها محمد الشيخ الوطاسي إلى فاس التي سيطر عليها بعد تغلبه على الجوطيين، ومن المعلوم أن البرتغال فرضت عليه الرضوخ لبنود الهدنة التي عقدتها آنذاك.

إن خسارة أصيلا من طرف الوطاسيين الذين أحكموا السيطرة على العاصمة المرينية فاس، هي في واقع الأمر تؤرخ لبداية نهاية دولتهم إذ أظهرتهم بمظهر الضعف، وقد حاولوا تدارك الأمر، لكن ذلك لم يجد نفعا خصوصا إذا علمنا أن سماءهم لبدها غيوم الحركة السعدية الناشئة في بداية القرن السادس عشر محققة الانتصارات تلو الأخرى سواء على الوطاسيين أم على البرتغاليين وسرعان ما مالت الكفة لصالح السعديين الذين ظهروا بمظهر المنقذين للبلاد من براثن الاستعمار المسيحي لاسيما وأن الأمر في غاية الخطورة بالشمال الغربي من المغرب الذي أصبحت أربع مدنه في يد الاحتلال البرتغالي : سبتة والقصر الصغير وأصيلا وطنجة.

هكذا شهدت المقاومة تطورا نوعيا تجلى في امتدادها الجغرافي والبشري فأدى ذلك إلى ظهور تكتلات قبلية واسعة في محيط أربع مدن هي:

1- تطوان التي أصبحت تدور في فلكها قبائل مجكسة وأنجرة وبني حزمارة مضافا إليها قبيلة وادراس.

2- شفشاون التي أصبحت تتفاعل معها قبائل جبال الشاون والقبائل المستقرة شرق وادي لاو.

3- القصر الكبير التي كانت قبيلة بني عروس من أشهر قبائله بزعامه شخصها عبد الله العروسي في منتصف القرن 9 هـ/15م. علما بأن رئاسة المدينة آلت إلى يد العروسيين من أبناء عبد الحميد في بداية الحكم الوطاسي.

4- (إزاجن) (أسجن الحالية) التي كانت تتعامل معها القبائل المستقرة بجبل رهونة.

واللافت للانتباه أن هذه التكتلات وجدت مقاومتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية ضد الوجود البرتغالي، فكان التنسيق دائما بين شفشاون وتطوان كلما تعلق الأمر بالهجوم على سبتة وطنجة وأصيلا والقصر الصغير، ونفس الشيء بالنسبة لشفشاون والقصر الكبير كلما تعلق الأمر بالزحف على أصيلا وطنجة، وأما حاكم إزاجن فقد كان ينضم بين الحين والآخر إلى حصار أصيلا.

ويرى الأستاذ حسن الفكيكي في هذا التطور بداية ظهور ما سماه بنظام المراكز المرتبط أساسا بزعامه بعض الأسر القوية بالمنطقة، كأ أسرة علي ابن راشد العلمي بشفشاون، وعلي المنظري بتطوان، وأ أسرة بني عبد الحميد العروسيين بالقصر الكبير، والقائد الحارثي بإزاجن. ولقيت هذه المراكز دعما من قبل الشيخ محمد الوطاسي اقتناعا منه أنه لم يكن بمقدوره وحده مواجهة البرتغاليين، كما فوض السلطة لنفس الأهداف الجهادية في الشمال الشرقي للمغرب للقائد علي العطار الأندلسي بتازوطة لمجابهة المد الإسباني. وقد زاد اهتمام الشيخ محمد الوطاسي بالمنطقة بظهور القشتاليين بمضيق جبل طارق سنة 1475، فسارع إلى حصار سبتة مخافة أن يستولوا عليها. وبعد ذلك حاول البرتغاليون السيطرة على اللوكس سنة 1489م، لكن الشيخ محمد الوطاسي تصدى لهم وردهم على أعقابهم خاسرين. ولجأ البرتغاليون إلى إبرام الهدنة مع المغرب، لكنهم لم يلتزموا بها، فواصلوا غاراتهم على ترغة وعلى سوق الخميس أنجرة، وعلى باقي القبائل الهبطية الأخرى، مسخرين في ذلك بعض أفراد تلك القبائل ممن تم أسرهم وتنصيرهم، ولم تسلم مدينة العرائش هي الأخرى من هجومهم حيث تعرضت لغارة سنة 1504م. وبعد ذلك كان مصب وادي تطوان هدفا لهم، لما أصبحت تقوم به مدينة تطوان من نشاط حربي لتوفرها على بعض السفن الحربية.

غير أن ما طبع المقاومة خلال هذه الفترة هو الانسجام الرابط بين أسرتي علي ابن راشد العلمي بشفشاون وعلي المنظري الغرناطي بتطوان، فقرب تطوان من سبتة جعلها دوما في حاجة ماسة إلى

الدعم لتتمكن من صد الهجوم البرتغالي، وقد زادت العلاقة متانة بين الأسرتين بإصهار على ابن راشد إلى المنظري في بنته الست الحرة، وكان جبل حبيب منطقة التقاء الأسرتين، ومن الجهات السابقة إلى تأسيس نظام المقدمين بهذه المنطقة الذين أخذ على عاتقهم تنظيم المقاومة.

وبرز أيضا خلال العقد الثالث من القرن السادس عشر كقائد حربي محنك، إلى جانب السلطان الوطاسي محمد البرتغالي، مولاي ابراهيم بن علي ابن راشد العلمي، الذي انتقل إلى فاس لتقلد الوزارة تاركا أمر شفشاوون لأخيه علال نائبا عنه، وتطوان لأخته الست الحرة السابقة الذكر، لكنه ظهر أمام أصيلا وطنجة خلال سنوات 1530م-1533م.

وكما سبقت الإشارة تعد مدينة القصر الكبير مركزا آخر للجهد في بلاد الهبط. وآل حكمها إلى أسرة العروسيين التي امتد نفوذها إلى الجبال الغمارية المطلة على بسيط الهبط، وفي سنة 1501م أغار قائدها طلحة العروسي على أصيلا، وعلى غرار آل ابن راشد والمنظري ضبط طلحة إيالته بمجموعة من الشيوخ والمقدمين الذين سهرروا على حراسة قبائلهم والمناطق الاستراتيجية من ترابها، وكان منهم بنسلمة الغياثي وابن غانم السريفي والشيخ زناكة والشيخ بوعرمة والشيخ عفان الذي سقط شهيدا سنة 1527م في الهجوم على مدينة أصيلا بمشاركة القائد محفوظ حاكم إزاجن.

وإذا كانت الغارات قد تواصلت على أصيلا ما بين 1509م و1534م متخذة طابعا إقليميا بمشاركة من مختلف القيادات والزعامات المحلية، فإن غارة 1526م التي استهدفت في آن واحد كلا من أصيلا وطنجة تعد أهمها لطابعها الرسمي، إذ ساهم فيها إلى جانب أحمد الوطاسي حكام وشيوخ إقليم الهبط. وفي سنة 1532م أخذ المبادرة الجهادية بنخديجة قائد إزاجن الذي خلف القائد محفوظ على رأس إزاجن بعد مقتله سنة 1527م، وقد تقوى جانبه بآل ابن راشد الشفشاونيين بعدما تزوجت بنته عبد الله سليمة أخا المولى إبراهيم. وحسب المؤرخ البرتغالي Antonio Baiao، صاحب الوثائق، الكرونولوجية المتعلقة بالمغرب، فقد استشهد في الميدان خلال هذه الحملة ضد أصيلا عدد من المغاربة من بينهم قائد قصبة، قال: إنها تقع بين فاس وتافيلالت سهاها Grancelui كريسلين، التي ما تزال أطلالها على الضفة اليمنى لوادي زيز ببضع كيلومترات جنوب مركز الريش الحالي. وستان بعد ذلك (1534)، نظم قائد القصر الكبير والعرائش الناصر العروسي وبنخديجة حملة أخرى ضد أصيلا بمشاركة قرواش شيخ الخلط.

يؤدي بنا التحليل السابق إلى استنتاج ما يلي :

- 1- أن المقاومة المغربية للاستعمار الإيبيري كانت مستمرة، وكان لها بعد إقليمي ووطني، ومررت بعدة مراحل: تارة تكون قوية، وتارة أخرى تصيبها تعثرات سوء التنظيم وتشيت الجهود، بسبب تعدد الجبهات.

2- ضعف الجيش المغربي أيام الوطاسيين. وقد بين الأستاذ حسن الفكيكي مكان ذلك في نقص عدده وعدته وسلاحه وتكوينه، فهو يفتقر إلى المدفعية والسلاح الناري المتطور من النوع الذي كان لدى البرتغاليين، وقد حاول السلطان محمد البرتغالي تدارك الأمر، لكن ذلك كان متأخراً ولم يجد نفعا. ونسجل أن المغرب لم يكن يتوفر على أسطول حربي قادر على مساندة القوات البرية أثناء الحصار. وهكذا بدا الجيش المغربي على العموم من المتطوعين من شجعان القبائل ومغامريها ليس إلا. أضف إلى ذلك صعوبات التموين وعدم القدرة على مواجهة التقلبات الجوية.

3- أن الأضرار الاقتصادية والبشرية المتواصلة التي كان شمال المغرب عرضة لها طيلة فترة تزيد عن قرن ونصف من الزمان عمقت الأزمة الاجتماعية لهذه المنطقة.

4- أن الاختلال كان يعتري صفوف المقاومين بسبب تضارب مصالحهم وما يؤدي إليه ذلك من اغتيالات. كما حدث سنة 1527م حينما أقدم القائد والوزير مولاي إبراهيم بن علي ابن راشد الشفشاوني على اغتيال القائد محفوظ إزاجن، وبينت الوقائع أيضا أن البرتغاليين كانت لهم قدرة اختراق صفوف المقاومة عن طريق المتعاونين ممن تم تنصيرهم.

5- أنه على الرغم من كل هذه المعوقات والمثبطات فإن جهود المقاومين لم تذهب سدى حيث نجحوا في استرجاعهم لمدينتي بادس وغسا تباعا سنتي 1522م و1533م.

6- أن الدولة المغربية زمن بني وطاس بذلت كل ما في وسعها لاستعادة الثغور المحتلة بحماسة منقطعة النظير ومثال ذلك على الخصوص ما قام به السلطان محمد البرتغالي 1524م الذي وصلت غزواته ضد البرتغال 35 غزوة، وهو الذي قيل عنه: إنه لا يعرف الراحة، ويقطع المسافة بين فاس وأصيلا في ظرف 3 أيام فقط.

7- أن ظهور السعديين في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وتصدرهم للموقف السياسي والحربي بالمغرب طيلة النصف الأول من نفس القرن، أثر بشكل كبير على مجريات الأحداث السياسية والعسكرية بشمال المغرب، إذ ظهروا بمظهر المخلصين من الاستعمار الإيبيري بفضل انتصاراتهم، سواء على البرتغاليين أم الوطاسيين. ويظهر واضحا أن سيطرتهم على فاس عاصمة الوطاسيين وظهور الأتراك في الساحل الشمالي الشرقي للمغرب كانا سببين كافيين لجلاء البرتغال عن أصيلا والقصر الكبير.

إن ما قمت به في هذه اللوحة المقتضبة هو تمرين صعب، المراد منه رسم صورة واضحة قدر الإمكان عما ورد في هذا المؤلف من إفادات علمية وتاريخية هامة تتعلق بالمقاومة المغربية للاحتلال الإيبيري من خلال كتاب الأستاذ حسن الفكيكي.

ديوان العدد

مَلِكُ الْوَحْدَةِ وَالتَّضَامُنِ

للشاعر : محمد البلغمي

أَبَدَعْتُ مِنْ بَحْرِ الْكَمَالِ نَشِيدِي *
 وَسَرَحْتُ فِي رَوْضِ الْفُنُونِ مُنْقَبَا *
 لِأَزْفَ مِنْ عُمُقِ الشُّعُورِ تَهَانِيَا *
 لِمَلِيكِنَا رَمَزِ الْبِلَادِ مُحَمَّد *
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي أَعْمَلُهُ *
 مَاذَا أَقُولُ .. وَذِي الْمَائِزِ جَمَّة *
 لِلدِّينِ تَعْمَلُ، وَالْحَيَاةِ مُحَقِّقَا *
 مَا أَنْ تَشِيدَ يَدَاكَ مَفْخَرَةً لَنَا *
 شِيدَتْ فِي الْأَوْطَانِ دُورَ مَبَرَّة *
 وَخَصَصْتَ عَاصِمَةَ الْبِلَادِ بِمَعْهَدِ *
 صَرَحَ سَيْرَفُ فِي الْمَعَارِفِ شَأْنَنَا *
 هُوَ مَعْهَدُ اللَّوْعُظِ يَجْمَعُ إِخْوَةَ *
 غَايَاتِهِ إِعْدَادُ جِيلِ مُؤَمِّنِينَ *
 يَسْرِي بِإِفْرِيقِيَا سَنَاهُ .. فَيَنْمُحِي *
 وَيَحْطِ لِلْأَجْيَالِ نَهْجَ تَوْشُّطِ *
 وَالْكُونُ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ لِمِثْلِهِ *
 يَا عَاهِلًا .. غَمَرَ الدُّنْيَا بِعَطَائِهِ *
 مِنْ سَادَةٍ خَاضُوا الْكِفَاحَ لِيُنْقِذُوا *
 أَسْدَى لِمَغْرِبِنَا الْحَيِّبِ أَيَادِيَا *
 وَحَبَا لِإِفْرِيقِيَا الْمُعَوَّنَةِ بَآذِلًا *
 مَلِكُ تَمِيزَ بِالسَّمَاحَةِ وَالتَّقْوَى *
 وَنَظَّمْتُ مِنْ نَبْضِ الْفُؤَادِ قَصِيدِي *
 عَنْ كُلِّ لَحْنٍ رَائِعٍ وَفَرِيدِ *
 آيَاتُهَا نَظَّمْتُ كَمِثْلِ عُقُودِ *
 أَلْسَادِ السَّادِسِ الْأَعْلَى، سَلِيلِ الْجُودِ *
 جَلَّتْ بِكَثْرَتِهَا عَنِ التَّعْدِيدِ *
 شَمِلَتْ مَوَاطِنَنَا بِكُلِّ صَعِيدِ *
 لِلشَّعْبِ يَا مَوْلَايَ كُلِّ مُفِيدِ *
 إِلَّا وَتَطْمَحُ بَعْدَهَا لِمَزِيدِ *
 لَتَضُمَّ بِالْإِحْسَانِ كُلَّ شَرِيدِ *
 بِيَدِ الْأَخْوَةِ وَالْوَفَاءِ مَشِيدِ *
 وَيُضِيفُ طَارِفَ مَجْدِنَا لَتَلِيدِ *
 مِنْ كُلِّ دَانٍ، فِي الدُّنْيَا، وَبَعِيدِ *
 مُتَمَسِّكٍ بِالدِّينِ وَالتَّوْحِيدِ *
 عَنْهَا دُجَى التَّبَشِيرِ، وَالتَّهْوِيدِ *
 مِنْ دُونِ مَا زَيْغٍ وَلَا تَشْدِيدِ *
 لِحِمَايَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ تَهْدِيدِ *
 كَالْبَحْرِ عَزَّ نَدَاهُ عَنْ تَحْدِيدِ *
 أَرْضَ الْحِمَى مِنْ ذِلَّةٍ وَقِيُودِ *
 قَدْ بَوَّأَتْهُ مَكَانَةً لِحُلُودِ *
 مِنْ أَجْلِ نَهْضَتِهَا عَظِيمِ جُهُودِ *
 وَسَمَا بِعَرْشٍ فِي النَّضَالِ عَتِيدِ

* أَعْطَى لِهَذَا الشَّعْبِ أَكْثَرَ قُدْوَةٍ
 * وَمَضَى بِهِ نَحْوَ الْمَعَالِي.. سَائِراً
 * يَحْمِي الْبِلَادَ، وَيَعْتَنِي بِتَرَاثِهَا
 * فَلَكَ الشُّنَاءُ عَلَى جُهْدِكَ نَابِعٌ
 * وَلَنَحْنُ خَلْفُكَ فِي الْمَسِيرَةِ، إِنَّ دَعَا
 * وَإِلَيْكَ تَرْفَعُ صَادِقِينَ دُعَاءَنَا
 * وَأَسْلَمَ لَشُعْبِكَ يَا مُحَمَّدٌ.. لَا بَسَاءَ
 * * وَلِيَحْفَظَ الْحَسَنَ الْحَبِيبَ الْإِهْنَا
 * * وَلِتَحْيَى لِلْوَطَنِ الْعَزِيزِ مُؤَازِراً
 * فِي الْحُبِّ وَالْإِخْلَاصِ بِالتَّأْيِيدِ
 * فِي تَهْجِ وَالِدِهِ بِكُلِّ صُمُودٍ
 * وَيَذُودُ عَنْ شَرِّ وَعَنْ تَوَحِيدِ
 * مِنْ قَلْبِ شَعْبٍ مُخْلِصٍ وَ سَعِيدِ
 * دَاعِي الْفِدَى سَنَكُونُ خَيْرَ جُنُودِ
 * بِالنَّصْرِ وَالتَّمَكُّينِ وَ التَّأْيِيدِ
 * حُلَلِ الْهَنَا فِي عَهْدِكَ الْمُمْدُودِ
 * وَتَرَاهُ يَبْلُغُ أَشْرَفَ الْمُقْصُودِ
 * بَوَلِيَّ عَهْدِكَ، وَالْأَمِيرِ رَشِيدِ

بكاك جميع الناس

الشاعر: عبد اللطيف الراس

أعوذُ إلى دمعي رأى الصبرُ حالياً *
 فأغضى عن المخزون ما عاد شافياً *
 على الملك المحبوب آه بحسرة *
 أبانا الذي للركن كان عماده *
 أبانا الذي في قلبه أنت أمة *
 أبانا الذي يرعاك في كل لحظة *
 أحاطك حبا حيثما كنت أينما *
 رفعت إلى الدنيا برأسك عالياً *
 وسيدنا في سبق ما حط رحله *
 رأيت الذي من فجعت بفقده *
 رأيت الذي من قد نكست برزئه *
 يحق لنا أن نبكي ونجزع مسنا *
 فيا ليت شعري ما الوداع إذا مضى *
 فزعننا إلى الناعي جميعاً كأنما *
 تكاد ولولا النعش تحت دموعنا *
 كيير علينا أن توارى لأعين *
 فلا هذه الأحزان من شعبك الذي *
 يحن إلى النعش الكريم بنظرة *
 ولا عزة السادات من كل أمة *
 بقادرة تشفي الفؤاد فإننا الـ *
 بكاك جميع الناس سيكون غصة *
 وطبعاً كريماً يعرف الناس قدره *

رأى وطني والدمع ينهلُ جارياً *
 لنا الصبر لا صبرٌ جميلٌ مؤاسياً *
 تقطع أكباداً وتندب غالياً *
 وللجرح مهما الجرح كان مداوياً *
 أباه الذي ما عاش دونك قادياً *
 تعهد للأبناء يسهر حانياً *
 حللت قصيماً من بنيك ودانياً *
 تكلله الأمجاد عزاً مباهياً *
 ركائبه للسبق تهتز ثانياً *
 رأيت أفي الدنيا القرين المثالياً؟ *
 رأيت أفي الدنيا كمثلك باكياً؟ *
 من القرع ضعف راعنا الخطب عاتياً *
 أكان وداعاً أم قضاءً مجافياً؟ *
 عن الموت لا ندري ولا نعلم آتياً *
 أيا سيدي قد لا نصدق ناعياً *
 متى خي ترنو لا تراك، أغادياً *
 تدافع أمواجاً تقاطر جائياً *
 يودّع جثمان المنعم واهياً *
 على الأرض جاءت جاءها النعي قاسياً *
 مصابون لا نبقي العزاء ثوانياً *
 يوارى الثرى خلقاً ويسكت داعياً *
 وأيد نديات حدون المعالياً *

تحدث عنك الناس ينعون مؤمنا	✽	أميرا حمى الدين القويم تفانيا
وأعلن أن الدين سمح بطبعه	✽	تأخى به الأعداء منذ جاء هاديا
أحبوك إذ تدعو إلى الحب شيمه	✽	لمن فقه الإسلام ديننا مصافيا
أحبوك هلا سرت إلا مسالما	✽	لأمر عظيم أقلق الناس عاصيا
أنرت لهم كم من سبيل فأضمروا	✽	لك الحب والإعجاب والود صافيا
بكى لك حتى الطفل من دمع أمه	✽	بكى الشيب والشبان ملكا مؤاخيا
تعللنا الآمال بأننا ببيننا	✽	لنا منك للبأساء درعا وحميا
تداركنا جرحى القلوب بحدبهم	✽	وأيقظ في الأبناء روحا نضاليا
تقبله الشعب الوفي مهلا	✽	لطلعته عزت جلالا وباديا
به من أبينا كم خلال وعزة	✽	وتوق إلى العلياء شهما وبانيا
فتحنا له منا القلوب كعهدها	✽	أمولاي فاسكن في القلوب فهاهيا

فهرس العدد:

7..... افتتاحية

مقالات العدد:

ذكرى ثورة الملك والشعب

ثورة الملك والشعب: المنطلقات والعبر المستفادة

11..... د. عبد الواحد الوزاني

انتفاضة مدينة واد زم يوم 20 غشت 1955م

19..... د. عبد المجيد محزوم

دور الزوايا وشيوخ التصوف في مقاومة الاحتلال الإيبيري نهاية الدولة المرينية وبداية الدولة
السعدية

31..... ذ. محمد أمrani علوي

سبب المقاومة في الشعر المغربي

41..... د. عبد الله بنصر العلوي

دعم مجلة دعوة الحق للقضية الجزائرية (1957م-1962م)

55..... ذ. أحمد بلخيري

ثورة الملك والشعب: ثوابت الانطلاق ومقومات الاستمرار

67..... د. رشيد لبحيح

التربية والاستعمار، المغرب نموذجا

79.....د. عبد الحميد عشاق

مقولات خاطئة حول الإمامة

99.....د. سعيد شبار

من أعلام تافيلالت المولى الحسن الشريف الداخل

111.....ذ. الحبيب عيادي

قراءة في كتاب:

قراءة في كتاب "لمحة تاريخية عن المقاومة المغربية للوجود الإيبيري

125.....د. محمد حمام

ديوان العدد:

قصيدة: ملك الوحدة والتضامن

137.....محمد البلغمي

قصيدة: بكاك جميع الناس

139.....عبد اللطيف الراس

141.....فهرس العدد

143.....شروط النشر بالمجلة

شروط النشر بالمجلة

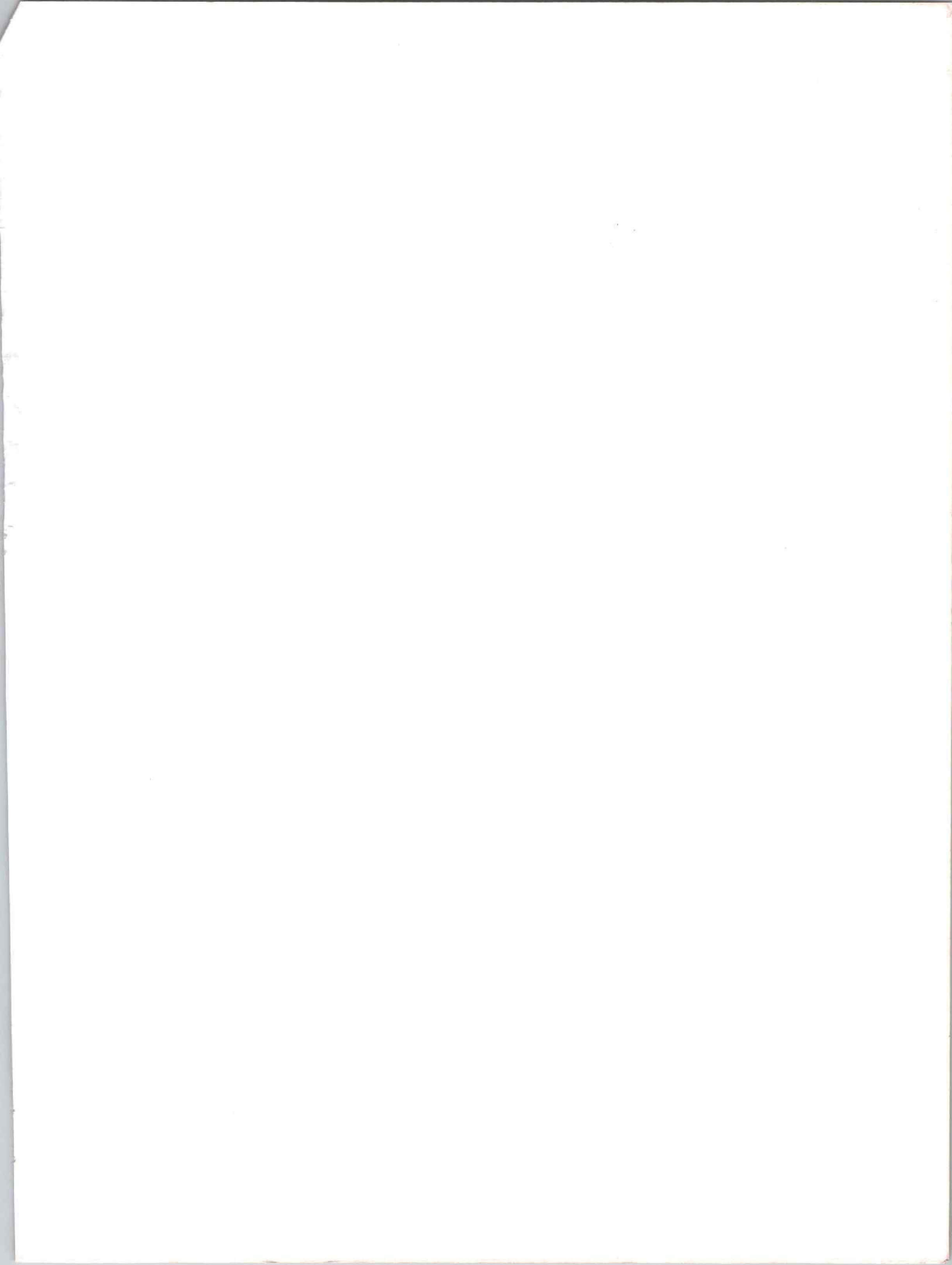
تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلماً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- البريد الإلكتروني هو : alami.hamid49@gmail.com
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

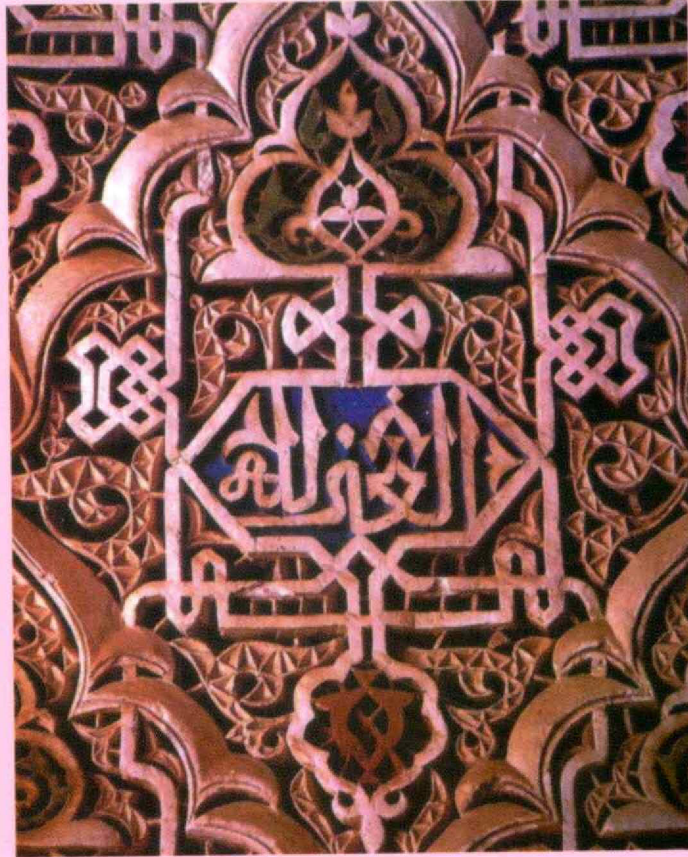
محاوَر الأعداد المقبلة:

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاوَر الآتية:

1. إمارة المؤمنين والبعد الإفريقي
2. جهود المغرب في تكوين القيميين الدينيين
3. التصوف السني والامتداد الإفريقي







دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعمر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية